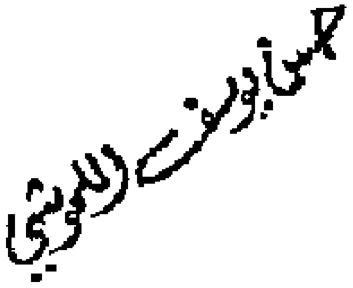
تشظّي على أرصفة الذاكرة

قصص

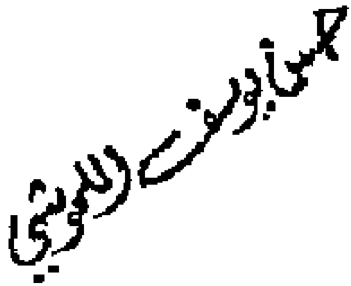
بالقاسم السَّحاتي



مجلس الثقافة العام



تَسَكُّع على أرصفة الذاكرة



إصدارات

مجلس الثقافة العام

الإشراف العام

أ . د . سليمان صالح الغويل

لجنة الإعداد والإشراف

ناصر الدعيسي

علي الفلاح

هليل البيجو

جابر نور سلطان

محمد عبدالله الترهوني

سالم أحمد الأوجلي

تَسَكُّع على أرصفة الذاكرة

وقصص أخرى

تأليف

بالقاسم السحاتي

الناشر

مجلس الثقافة العام

اســـم الكـتاب	تسكع على أرصفة الذاكرة - وقصص أخرى
اســـم المؤلـف	بالقاسم السحاتي
سـنــة النـــشـــر	2008 م
رقـــم الإيـــداع	796 / 2008 م
الترقـيم الدولـي	978 - 9959 - 38 - 719 - 6
تـصميم الغـلاف	علي العباني
لـوحـة الغلاف	سامي الزولي
التنفـيذ الفنـــي	دار قباء الحديثة - القاهرة

الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى

إصدارات

مجلس الثقافة العام

المقر الرئيس - مجمع المؤتمرات - سرت

هاتف 002185468622 - بريد مصور 002185473161

فـرع طرابلس - عمارة الواحات - شارع عمر المختار

هاتف 00218214449894 - بريد مصور 00218213335388

ص ب 2764 طرابلس

فـرع بنغـازي - الفويهات الغربية - الطريق الدائري الثاني

هاتف 00218612241577 - 00218612241578

بريد مصور 00218612241576 - ص ب 9351 بنغازي

بريد إلكتروني - LCC2_2005@Yahoo.ca

الإهـــداء

هاأنا بعد تردد طويل لأسباب عديدة، ألملم بقايا قصص كنت قد كتبتها على فترات ضاع بعض منها بإهمال متعمد واحتفظت بهذه المجموعة مصادفة.

وعندما فكّرت في الإهداء قفزت إلى ذهنى الكثير من الأسماء التي أخذت بيدى أولهم ذلك الشيخ المسن « صالح عبدالصادق حسن » الذي طحنته أيام الاحتلال في معتقل سلوق، وغرس في ذاكرتى مئات الحكايا عن معنى المعاناة والظلم واليتم إلى الآن رغم رحيله، مازلت أحتاج إليه، كلما شعرت بقسوة الحياه. فلم يكن مجرد أبي..

وإلى روح المرحوم محمد المصلي التي كانت بدايتي معه في صحيفة الشلال درنه..

وإلى الدكتور عبدالسلام شلوف هذا الرجل الذي لاينضب من العطاء المتواصل ومن علمنى أبجدية مواصلة الكتابة.

وإلى روح الأستاذ عبدالله عبد المحسن صديقي الذي رحل في قمة تألقه الإذاعي، والأدبي.

وإلى أستاذي سالم العبار هذا الصرح الذي تخرج منه ومن خلال برنامجه الشهير « مايكتبه المستمعون » العديد من الأقلام التي شقّت طريقها في الساحة الأدبية، والمحرض على طبع هذه المجموعه.

وإلى الأستاذ الإذاعى سالم الفيتوري الذي بثَّ بصوته نبض الحرف في العديد من قصصي .

وإلى وجوه في ملامحها أدفن الكثير من الهموم « رفيق .. شروق .. رواد ».

لهم جميعاً ولمن سقط سهواً من ثغور ذاكرتي أهدي باكورة أعمالي.

بالقاسم السحاتي

rafekshaty@yahoo.com

أحداث في ذاكرة مبعثرة

حاولــت الخــروج من نفسي فلم أستطع .. حتى جسدي أشــعر أنــه يحتجزنـــي بين مجموعة هذه الأعضاء فأنا لست الــواجهة التـــي يراها الناس .. عينان وأنف وفم .. هذا الوجه لــيس أنا .. إني أقبع خلفه ويوماً ما سيسقط هذا القناع ويذوب في التراب وينتهى .. ولكن أنا سأبقى في العالم الآخر وسيبكى مــن يحبنـــى كثيراً لأنه أحبني شكلاً فقط .. شيء ما أحسست بسقوطة في داخلي ..

أحس بألمه ولكن لا إعرف موضعه .. أمسك برأسي بين يـــدي ... أضـــغطه بـــشدة .. أتحسس جبيني ... أعصره بين أصابعي ... والألم مستمر...

حتـــى ذاكرتـــي أصبحت يعلوها الصدأ عاجزة عن خلق التعبير الغني ...

تـــدور بهـــا أحداث متشابكة لا أقوى على رسم تفاصيلها ... أغمـــضت عينـــي أو هذا الشباك الذي أطل من خلاله على من هم حولـــي .... وصعدت متسللاً إلى ذاكرتي في محاولة عابثة للفصل بـــين أحـــداثها ووقفت أراقب سيرها... امرأة جميلة تحتضن طفلاً

صــغيراً تفوح منها رائحة المسك والدم ... تهاجمها الكلاب وتنهش من لحمها قطعاً صغيرة وتأكلها بنهم ..

وهـــي تــصرخ .. تــصرخ .. مــستنجدة بأخوتها، واختفى الحدث

.... إخـــوة المـــرأة يلعـــبون (الشطرنج) مع صاحب الكلاب على رقعة من ذهب .. تفوح منهم رائحة النفط والعرق ... يلعبون ثم ينصتون قليلاً....

ويتأســفون كثيـــراً ... وسقط الحدث ... هناك في أرجاء الذاكـــرة حدث يلوح من بعيد .. لوجوه لم أرها أبداً ولكني أعرفها جيداً ترتسم عليها بقايا ابتسامة قديمة .. حاولت الاقتراب منها..... ولم أستطع الوصول إليها فبعض الأحداث الجديدة تفصل بيننا ... إحداها كان لرجل تسبقه بطنه .. له لحية ولا أذكر أن له شارباً .. يمسك بيده مسبحه ولكنه لايستعملها يعد حباتها فقط .. تحمله أرجل غريبة ليست له ....

ارتجت الذاكرة فتبلورت الأحداث .... وقف أصحاب الوجـــوه التـــي أعرفها ولم أرها .. يحملون سيوفاً .. أحاطوا بالرجل الذي تسبقه بطنه...

فتكور على نفسه .... وبكوا من غير عيون ... من غير عيون.

* * * *

الحالمة

دخل الأستاذ (حسن) في الصباح إلى مكتبه يتأبط ملفاً ضخماً يحوى مادة الصحيفة التي ستنشر في هذا العدد استعداداً لمراجعتها للمرة الأخيرة قبل الطبع، هكذا جرت عادته منذ أن تولى أمانة تحريرها، أول من يدخل مبنى الصحيفة وقد لا يكون آخر من يخرج بل أحياناً يتناول وجبة الغداء في المكتب ويواصل العمل للمساء ومن دون أن يرفع رأسه عن الأوراق التي بين يديه .. قال للطارق: تفضل. صباح الخير يا أستاذ حسن – . صباح النور يا أمينة. وضعت (أمينة) كومة من الرسائل وهي تقول:

– البريد يا أستاذ

– شكراً... انتظري قليلاً. وضع الأوراق التي بين يديه في الملف وسلمه لها لتبعث به للطبع .. وبدأ في فض الرسائل وتصنيفها حسب مواضيعها في زوايا الصحيفة، لفت نظره في إحدى الرسائل أنها موجهة إليه شخصياً ومكتوب عليها عبارة « شخصي جداً. » وضعها بجانبه، وبعد الانتهاء من وضع ملحوظاته على البقية، فتح الرسالة وقرأ :

.. « أســـتاذي الفاضل .. قبل كل شيء ما أكتبه لك ليس للنـــشر فأنا لست كاتبة ولا شاعرة ولا أملك أية موهبة تجعلني أكـــتب إلـــيك .. ما أكتبه يكفي أن تقرأه بمفردك .. وما جعلني أخـــتارك أنت دون غيرك فهي دوافع كثيرة، راجية من الله أن تكون لديك سعة صدر ووقت يمكنك من الأطلاع على أسطرى هـــذه، وربمـــا الآتية أيضاً » وقبل أن يستمر في القراءة رفع ســـماعة الهاتف وطلب من أمينة أن تعتذر لـــه عن تحويل أية مكالمة أو زيارة الآن، وواصل القراءة : « .. الدافع الأول هو مـــا قـــرأت لك من مقالات تحمل طابع الجرأة التي أفتقدها في نفـــسي، والدافـــع الثانـــي هو شخصي وسيأتي ذكره في سياق حديثـــي هـــذا معك، لا أدري من أي الزوايا أبدأ حديثي ولكن سأترك لنفسي سجية التعبير لأنني كما قلت لك لست بكاتبة ولا أملـــك حتى مجرد الميول لذلك .. كنت صغيرة أجلس على أحد مقاعـــد الدراســـة في مدرسة هي أيضاً صغيرة، وكنت أعشق الجلوس في أحد المقاعد الخلفية للفصل، لكى أرى كل ما يدور خارج المدرسة وعندما اعتدت الجلوس في هذا المكان أصبحت أحلـــم .. صدقني إني في ذلك العمر أحلم، هل تعرف ما معنى أن يحلـــم إنـــسان وهو صغير ؟ بكل تأكيد تعرف لأنك يوماً ما كـــنت صغيراً، ولكن حلمي كان أكبر من عمري بكثير، قد لا

تـــستوعبه رأســـي الـــصغيرة بظفائرها المزينة بشريط أحمر، جلـــست طويلاً في حضن أمي حتى أحكمت تنسيقه بدقة، حتى أبدو نظيفة مؤدبة وجميلة، وهذا في نظرها مرآة تعكس صورة تـــربيتها، حلمـــي ذاك سبب لي الكثير من المتاعب بل أصبح موضع تندر العائلة كلها وهذا ما جعلني أعتبره كبيراً لا يتناسب مـــع رأســـي المظفرة، ومع ذلك صممت أن أحلم بسرية، وفي المكـــان نفسه في زاوية الفصل وأنا أنظر من خلال النافذة التي تطـــل على الشارع حيث أرى حلمي مجسداً في غيري، ووجه واحد اخترته دون كل الوجوه التي تعبر الشارع لأجعل من هذا الـــوجه شخصية لى حتى يكتمل الحلم في مخيلتي لفتاة تأتي كل صـــباح فـــي الموعد نفسه تسير بخطوات حثيثة وفي منتصف الـــنهار تـــرجع ولكن بخطوات بطيئة متمهلة، وهذا هو الوقت الذي أستطيع أن أتفرس فيه وجهها أكثر.

وأنا أتخيلها أنا ،حتى بت أشك في أن ذهابي للمدرسة ليس للدراسة بل من أجل أن أراها، وفي إحدى المرات ضبطني معلم الحساب متلبسة بحالة حلم، تحسب أن الأمر سهلاً فأنت لا تعرف معلـــم الحـــساب، هـــو رجل قاسي الملامح، حجمه كبير ويضع نظارتـــة الطبية دائماً على عينيه، حتى عندما أضع رأسى على

الوسادة بمحاذاة جدتي وهي تحكي لي عن « أبي زيد الهلالي » فصورته هي أول ما يقفز إلى ذهني، وسألتها مرة .. هل كان أبو زيد يضع على عينيه نظارة طبية ؟ فاكتفت بالابتسام وقبلتني، ثم نامــت ولم أستطع أن أتخيل معلم الحساب يحمل بيده سيفاً كبيراً ببدلــته الأنيقة وبنطاله القصير ومنديله الأبيض الذي لا يستعمله بل يبرز نصفه من جيب سترته، ولم أعرف ما الحكمة في هذا، ومــع ذلــك اقتــنعت أنــه ضروري فمعلم الحساب لا يخطىء التصرف .. بدأ تحقيقه معي فيما كنت تنظرين ؟ ولم أجد القدرة على البوح له بحلمي واكتفيت بأن رفعت يدي لأحمي بها وجهي مــن صــفعة محتملة، وقد لا تدري أن مرارة الانتظار أمر من الصفعة نفسها، لأنك لا تدري أين ستقع، لكنه كان أذكى مني فقد انقــض على أذني يهرسها بين أصابعه، وذلك اليوم حزنت كثيراً ليس لأن معلم الحساب عاقبني، بل لأن عقوبته جاءت مع مرور وجهــي مــن الشارع .. أستاذ حسن .. هل مازلت تحتفظ بسعة صــدرك ؟ أتمنى مخلصة ذلك قد تتهمني بالثرثرة ولكن لا بأس أتقبل هذا على أن تواصل القراءة .. وانقضت تلك الفترة واختفى الوجه من الشارع وقد لا تتصور ما أصابني لغيابه، اعتبرت ذلك خيانة منها، كيف تتركني وأنا جعلت منها حلماً وصورة لمستقبلي فلــن أغفر لها خيانتها هذه، ومع هذا صدقني كنت أشتاق إليها،

أحياناً تراودني في أحلامي أثناء نومي، وعندما أستيقظ ولا أجدها كـــنت أبكي بحرقة ما جعل جدتي المسكينة تستعيذ من الشيطان وتغـــسل وجهـــي بالمـــاء البارد ولم أخبر أحداً بالسبب، وعندما تكررت حالتي تلك وجدت يوماً في إحدى طيات ثيابي ورقة على شـــكل مثلث لفت بعناية في قطعة قماش، وقبضت علي أمي وأنا أحـــاول فتحها، أصابها ذعر شديد وأخذتها مني وقبلتها وأقنعتني بـــأن أضـــعها في مكانها لكي لا أبكي عندما أستيقظ من النوم، ووضـــعتها ولـــم أكف عن البكاء كلما تذكرت ذلك الوجه، كنت أنفـــرد بنفـــسى وأبكي كثيراً.. في تلك السنة رسبت ولم يكن وقع النتيجة على نفسي أكبر من غياب وجهها الذي كان يطالعني كل صباح، وتركت هذه الحادثة ندباً في قلبي أضيفت إليه عدة ندوب كان أكبرها موت (حسن) .. حسن هذا يا أستاذ حسن هو أول من أحببت، أحببت فيه عينيه اللتين تشبهان عينى ذلك الوجه الذي اختفـــى مـــنذ زمن، ولاشيء آخر فيه يلفت النظر فهو درويش بتـــرت يـــده اليمنى وثلاثة أصابع من اليد اليسرى، وجدع أنفه، وفقـــد القـــدرة على النطق، عرفت قصته منذ كنت صغيرة، فقد قالـــوا .. كـــان يرعـــى الغنم مع إخوته وهو صغير فوجدوا آلة اجـــتمع إخـــوته علـــى فـــك أجزائها بينما هو مبتعد عنهم وكان الانفجـــار مدوياً تناثرت أجساد إخوته قطعاً صغيرة ونصيبه هو

مــن ذلــك هذه التشويهات وتخلف عقله، فكلما أطيل النظر في عينيه أحس بمدى معاناته رغم أنه كان دائماً يرسم ابتسامة بلهاء .. صــدقني لقد أحببته بصدق ومن دون شفقة بكل هذه العيوب وجمالــي الــذي تتغزل به أمي وصديقاتي كل يوم ولا أدري ما تحدثــه المفاجأة فيهم لو عرفوا أنني أحب حسن الدرويش، كنت ســعيدة بحبــي هذا فأنا الوحيدة التي تستطيع أن تتكلم مع حبيبها أمام كل الناس دون أن يتكلم عنها أحد .. فكلما أجده جالساً أقف أمامــه وأنظر إلى عينيه فيبتسم، أقدم له قطعة حلوى حتى أصبح ينتظرنــي كل يوم في المكان نفسه وأقنعت نفسي بأن ذلك يكفي حتــى أعرف أنه يبادلني الشعور نفسه فهو ينتظرني أنا كل يوم دون غيري فما الحب إن لم يكن كذلك إلى أن.....

آسفة جداً أستاذي قد استرسلت في الحديث دون أن أسألك هل أستمر، أنا في انتظار موافقتك على الاستماع لحديثي وتكفي إشــارة عبر الصحيفة بأن سطوري وصلتك حتى أبعث لك من جديد .. « الحالمة ».

خــرج الأستاذ حسن مسرعاً ليصل إلى الصحيفة قبل أن تطبع.

* * * *

إنهم يبقرون النساء

تسللت لقاعة الحكم لم أجد الحرس ولا الخـــدم لابـــد أن (معاوية) ذهب في رحلة صيد وأخذ معه حاشيته، اقتربت من كرسي الإمارة وأنا أتفحصه جيداً وأمرر يدي على الفرو الناعم المعلق خلفه وريش النعام الذي يستعمله الخليفة للتهوية في لياليه الحـــارة، غيـــر السيوف المرصعة بالأحجار الكريمة والدروع المطعمـــة بالذهب، التي تزين جدران القصر.. ووجدت نفسى أجلـــس علـــى كرسي الإمارة وأصبحت أميراً للمؤمنين بدون مـــنازع ولا قتال وراقت لي الفكرة .. صرخت بأعلى صوتي (أيها الحاجب .. أيها الحاجب) ولا أدري من أين خرج رجل مُسن غزاه الشيب ولم ترحمه التجاعيد وانحنى أمامي إني أذكر ذلك جيداً ..

انحنى أمامي قائلاً :

- (أمرك مولاي).

وظـــل علـــى انحنائه فالتفت خلفي عله كان يقصد يرى وعـــندما لم أجد أحداً أدركت أن من يجلس على كرسي الإمارة

هو الحاكم فأسندت ظهري إلى الخلف وكتمت نفسي قليلاً حتى انتفخت أوداجي كما هي عادة الحاكم دائماً وقلت بصوت مرتفع (من على الباب ؟).

فاعــتدل فــي وقفــته وقال بصوت منخفض كما هي عادة المحكوم دائماً (الشعراء يا مولاي) .. قلت (أدخلهم حالاً)...

ومــا هي إلا لحظات حتى دخل طابوراً طويلاً لوجوه تحمل الملامح نفسها ويرتدون ملابس مزركشة وانحنوا جميعــاً مردديــن (أطــال الله بقــاء مولانا.. ولانا.. نا..) وما قلت لهم اجلسوا حتى أخــذوا أماكنهم وكأنهم اعتادوا الجلوس على هذه الأرائك ، ابتسمت لهــم فــضحكوا جميعاً ووقف أحدهم ويبدو أنه أفحلهم شعراً وألقى قصيدة طويلة تطائر الزبد من فمه خلالها ولم أفهم منها شيئاً إلا أنه كان يمجد ابتسامتي، وتوالى بعده الطابور حتى أصابني الزهو وربما الغرور أيضاً فأمرت الحاجب بأن يمنح كلاً منهم خمسمئة دينار ذهباً (مــن بــيت مال المسلمين طبعاً) فتصاعدت الدعوات منهم بطول بقائي حاكماً فوق رؤوسهم وانصرفوا ..

ودخل الحاجب قائلاً (يا مولاي هناك أعرابي على الباب يلح فــي مقابلتك).، (حسناً دعه يدخل)، فدخل رجل رثُ الملبس وهو يتوسل ....

(أنصفني يا أمير المؤمنين)..

قلت له :

– (من ظلمك ؟) .، قال :

– (أن أحد اليهود قد بقر ناقتي)..

وضـــحكت كثيراً وتأسفت أكثر لأننى استيقظت قبل أن أقول له « إنهم الآن يبقرون بطون نسائنا الحوامل ولم نحرك ساكنا ».

* * * *

المشؤوم..

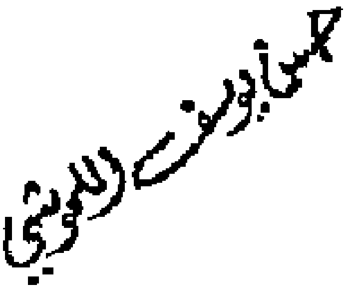
ذلك اليوم اختلف عن باقي الأيام .. في كل شيء .. حتى في شمسه .. إنها تبدو أقل حرارة رغم أننا في منتصف الصيف ولم تجلس العجوز كعادتها تحت شجرة الزيتون.. تنتظر ابنها الذي لن يأتي .. والكل يعرف أنها ليس لها أبناء ولم يخرج المعتوه يسأل عن حمامته التي ربط أحد رجليها بخيط أحمر.. وعندما حان موسم الهجرة تركها تهاجر.. ولكنها لم ترجع في كل مواسم العودة .. وما جعلني أقطع الشك باليقين أن هذا اليوم يختلف عن باقى الأيام صاحبِ محل البقالة رأيته يضحك .. فهو دائماً عابس ... واعتاده الناس هكذا منذ زمن.. ونسجوا حول عبوسه الأساطير ..

ومن عاصر طفولته قال لقد ولد هكذا عابس وإنه ضحك مرة واحدة وهو صغير فمات والده !! وكلما وقعت كارثة ينسبونها إليه .. وأصبح لضحكته وزن.. وأنا اليوم رأيته يضحك .. حتى انكفأ على وجهه من الضحك .. وجسمه المترهل يهتز بشدة ما جعل بعض النقود المعدنية في درج الطاولة تحدث صوتاً.. وحين.

رفع رأسه وجدت أن عينيه قد اغرورقتا بالدموع من شدة الـــضحك .. فانقـــبض صـــدري وأسرعت في العودة للبيت .. وأخبرت الجميع بما رأيت من حال البقال .. وأكدت الخبر عدة مرات حتى صدقوا..

وجلـــسنا صـــامتين ننتظر حتى نعرف أين ستقع الكارثة وكل ما يطرق الباب نتسابق جميعاً على فتحه على غير عادتنا كـــل مـــنا يدفعه فضوله لمعرفة الخبر أولاً .. وعندما نجد أحد الجيـــران جـــاء للزيارة أو للسؤال عن شيء نرجع خائبين .. وعـــشنا على أعصابنا فلم ننم جيداً ليلتها .. وفي الصباح علمنا أن البقال .... قد مات.

* * * *



أول الـــرؤوس

شرعت موظفة الاستعلامات في سرد القوائم أمامها وهي تـــردد بصوت منخفض .. مصطفى سليمان .. مصط .. مصط .... تصنعت الجدية والاهتمام إليها وأنا أطل برأسي من خلال الـــشباك الصغير الذي يتوسط القضبان الحديدية ولا أدري لماذا حظـــى الـــرأس دون بقـــية الأعضاء بهذه الميزة فهذه الفتحة الـــصغيرة أو الـــشباك لا يتسع إلا لرأس .. كنت أتساءل بيني وبين نفسي كيف للموظفة أن تعرف بأنني جئت بكامل أعضائي ولـــم أتحايل على القانون وآتي برأسي فقط !! كم هو محظوظ رأســـي يحتفظ بمكانه رغم كل هذه الرؤوس التي تزاحمه ومن دون أن تنظر نحوي قالت:

- مصطفى سليمان أليس كذلك ؟؟

قلت بلهفة:

- نعم نعم هو.

ولكنها خيبت ظني وعادت للنغمة السابقة نفسها بصوتها المنخفض وهي تسرد بقلم بين أصابعها القائمة الأخيرة، ولولا ؟

أني كحنت أقبض بشدة على القضبان الحديدية كاد أحد الرؤوس أن يــزيح رأسي ويبدو أنني قد أطلت المكوث فعبارات التذمر كانــت تخــرج من بعض الرؤوس خلفي ولكن لم أهتم وأخيراً رمت القلم إلى جانبها بتأفف وقالت:

- ربما لم يمت هنا.

تساءلت بعفوية :

- كيف؟؟

أضافت :

- أو مات في أحد المستشفيات الأخرى ؟

وكــأن كلمـــة الموت هي أيضاً من ضمن روتين العمل تقولها من دون أن تتحرك ملامحها وأردت أن أؤكد لها أنه مات هنا غير أن أحد الرؤوس أخذ مكاني.

خـــرجت وأنا أنوي الرجوع في اليوم الثاني مبكراً ليكون رأسي هو أول الرؤوس التي تطل من الشباك.

* * * *

الحــذاء

... لا أدري كيف ارتبطت صورة وجهه بالحذاء كلما رأيت وجهه تقفز إلى ذهني صورة الحذاء الذي ينتعله وحتى وإن لــم أره ويأتي أحدهم على ذكره كنت أتخيل ذلك الحذاء معــه امتــزاج غــريب يحدث دون إرادتي لم أجد له مبررا وأحاول دائماً ألا يشعر بذلك فيحسبني أتعمد إهانته .. ويبدو أنه لعب دوراً كبيراً في حياته لأن أغلب قصصه يتحدث فيها عنه وأذكر مرة أنه كان يحكي وفي آخر الحكاية التي لم أفهم بدايـتها قــال: « ولولا الله وهذا الحذاء لأصبحت في عداد الأمــوات »، وكثيــراً مــا ينتابني الفضول حتى أصبح هذا الفضول عادة كل يوم وبعد رجوعي من المدرسة أذهب إلى حــيث يجلــس وأرجع بعد أن يغمر نفسي الصغيرة فرح لا أعــرف مــصدره شكل الحذاء أو وجه الرجل وكم من مرة اقتنــصت الفرصة لألمسه وفكرت في سرقته لكي انتعله بل لأتأمله جيدا وابتسم .. وأنا أتذكر تلك المواقف الساذجة ولكن لــم تنفــصل صورة الوجه والحذاء حتى بعد أن كبرت وفي زيارة إلى حيث كنت لم أصادفه بل صادفت الحذاء، قد أكل

علـــيه الدهر وشرب، هطلت عليه الأمطار ولفحته الشمس، فتقوس شكله مسكته بيدي وتفحصته جيداً وعرفت أن صاحبه قد مات .. مات منذ زمن.

* * * *

الـدائـــرة

طلقنـــي لقـــد مللت الاستمرار. هذا ليس لسانك إنه لسان أمك..

أمي .. أمي .. إنك تكرهها، كلما أطالبك بحياة أفضل تقول لـــي أمـــك..؟!! لا تتغيـــر تصرفاتك إلا بعد كل زيارة لها، ماذا ينقـــصنا حياتنا كلها سعيدة ؟. أريد أن أعيش فـــي بيت مستقـــل لا يـــشاركني فيه أحد.. ككل النساء . وأبي وأمي لمن أتركهما، هل هذا جزاؤهم بعد أن تقدم بهم العمر.. لا.. لا.. مستحيل. وما شـــأني أنـــا لقد تزوجتك بمفردك. حرام عليك أنا ابنهم الوحيد، ضحوا بكل شيء من أجلي، بذلوا الغالي والرخيص حتى كبرت وتعلمت وأيضاً حتى تزوجتك وباختيارهم. أرجوك .. لقد تعبت ولن أحتمل المزيد يجب أن تضع حداً لهذا الوضع. ماذا تريدين منـــي أن أفعـــل، هل أرمي بهم في الشارع ؟ هذا شأنك إما أن تـــبحث عن منزل مستقل أو ..... أو ماذا ؟ أو طلقني... أدار الممـــثل لهـــا ظهره واتجه إلى زاوية المسرح وبحركة درامية وضع يديه على وجهه وجثا على ركبتيه وقال بصوت مرتفع: « أنـــتِ طالـــق .. طالـــق .. طالق ».. فصفق لـــه الجمهور

وأطفــئت الإضـــاءة على الخشبة واسدلت الستارة، وقف وهو يطـــوي بين أصابعه تذكرة الدخول ورمى بها في عصبية أثناء تحـــية الجمهـــور للممثلين الذين تشابكت أيديهم في صف واحد فـــوق خـــشبة المسرح، خرج تدفعه الأجساد والأقدام المتلاحقة نحو الشارع الضيق، تتعالى أحياناً بعض الضحكات المستهترة وتتناهى إلى سمعه التعليقات حول أحد مشاهد المسرحية وحاول أن يتذكـــر عنوانها ولكن لم تسعفه الذاكرة، حث الخطى بعد أن انتقل النقاش الدائر إلى جانبه عن المسلسل الجديد وأصر أحدهم على أن الرجل يريد أن يخدع زوجته لكي تسجل باسمه المصنع والشركة اللذين ورثتهما عن والدها عندما مات بالسكتة القلبية، بينما اعترض الآخر بأن هذه أحداث المسلسل السابق، والجديد أخ تحرضه زوجته ليكيد لأخيه الطيب لكي يستولى على الثروة بمفرده وهي تخونه مع صديقه و.. و.. و........ دخل المنزل مـــرهقاً تعـــصف بـــه الهواجس، أبي ... أمي .. الأطفال ... زوجتي،.... وكعادتها وجدها في انتظاره صرخت في وجهـــه « طلقني لقد مللت الاستمرار ».

* * * *

السقــوط ..

قالت: (إن تفكيرك يسحق مساحة حلمي.. دعني أنام).

انــزلق تحــت الغطــاء وشده حتى أسفل أنفه وشخص في الظــلام إلى السقف، امتدت يدها تبحث عن عينيه وقالت : « لكي تنام يجب أن تغمض عينيك، ولكي تحلم يجب أن تنام » ...

أغمــض عينيه، الظلام هو الظلام نفسه، ترتسم فيه تلك الــصورة المتكــررة نفسها لرجل يعتلي غيمة، تستطع الشمس فيــسقط مبتسماً يتابع سقوطه من السقف إلى أسفل أنفه وتختفي الــصورة ، يعود بعينيه إلى السقف يراه يعتلي الغيمة مبتسماً.. همــست : « أمــس بينما كنت عند (زينب) قالت أن زوجها يــرجع كل ليلة متأخراً وفى كثير من الأحيان مخموراً، يعتدي علــيها بالــضرب ويحطــم كل ما تقع عليه يده، حتى ملابس الأطفــال يبعثــرها ويــنام في أي مكان يداهمه فيه النوم وفي الــصباح يُنكر ما فعل ». قال في نفسه وهو مغمض العينين .. الأســتاذ إبراهيم يقول لكي نسمع صدى السقوط وتكون عملية السقوط كاملة لابد أن يصطدم الجسم الساقط بشيء صلب ومن

غيـــر المعقـــول أن يتم السقوط من الأسفل إلى الأعلى، ولكن الـــرجل المبتسم في ذروة سقوطه يصعد مرتفعاً. تمتمت وهي تتململ في الفراش :

- « كلكـــم هكذا صنف الرجال، قبل أن يتزوجها كان يقـــبل الأرض تحـــت قدمـــيها، وجمع كل شيوخ الحي لإقناع والـــدها الذي رفض مجرد الحديث معه، ولكن زينب سامحها الله، انـــساقت خلف عواطفها وألهب مشاعرها بكلماته البراقة ووعوده، بنى لها قصوراً من رمال لا يطالها المد، وسأجعلك أســـعد إنسانة على وجه الأرض.. (وضحكت باستهزاء مقلدة زيـــنب) لا أريد أن أكون أسعد إنسانة تكفيني سعادة محدودة بقـــربك على قدر إمكاناتنا ودعنا نجعل أحلامنا صغيرة حتى يسهل علينا تحقيقها ... سامحك الله يا زينب » قال في نفسه .. لو فقط أستطيع إيقاف الرجل المبتسم في لحظة سقوطه وأجعله معلقـــاً بـــين السقوط والصعود حتى أتمكن من إقناع الأستاذ إبراهيم بأن هناك سقوطاً من الأسفل إلى الأعلى ولكن من غير الممكن إثباته.

* * * *

أمنية عيـد الـميـلاد

قالــت: « قد يعود بعد قليل » .. « هل يمكنني انتظاره هــنا » .. « تفضل » جلست في المقعد المقابل لها، واستمرت في تنظيم أوراق أمامها وتسجيل بعض الملاحظات عليها، وكلما مالـــت برأسها للأمام ينساب شعرها الفاحم حتى يلامس سطح المكــتب وبحـــركة سريعة تنفض رأسها للخلف فيرجع متناسقاً وكأنـــه ما تحرك من مكانه أبداً، حاولت التقاط لون عينيها، في بـــادى الأمـــر حسبتهما سوداوين وعندما أطلت النظر أصبحت عــسلية، ووقفت عاجزاً عن تحديد ملامحها التي تكسوها طبقة مـــن الأصـــباغ، فكـــرت كيف يمكننى أن أبدأ معها حديثاً، هل أســـألها عن الساعة ؟ فأحسست أن ساعتى تضيق حول معصم يدى تذكرنى بوجودها .. قلت لها :

- « الجو يبدو حاراً ».

نظـــرت إلي وكأنها تفطنت لوجودى أول مرة ودون أن تـــتكلم ضـــغطت علـــى جهـــاز تحكم بجوارها فاشتغل جهاز التكييف..

ـ « هل من العادة يتأخر الأستاذ ؟» وبعدم مبالاة قالت:

ـ « أحياناً » .. قلت :

- « ربما لا يأتي اليوم ؟ ».

تابعت تصفح أوراقها وبصوت خافت قالت « ربما » .. « أنـــا لا أســتطيع المكــوث طويلاً » نظرت نحوي وعلامة التبـــرم مـــن وجودي في وجهها وهزت كتفيها وكأن الأمر لا يعنـــيها، أثـــارت أعصابي برودتها وصممت على أن أجعلها تتحدث معي ..

ـ « لكن الأستاذ هو من حدد معي هذا الموعد».. قالت:

ـ « أنتظـــره !! » .. انتظرت وطال انتظاري وصمتي وأصـــابني الملـــل والنعاس فأسندت رأسي للخلف على المقعد وبعينين نصف مغمضة رأيتها تبتسم ما بين الورور الموضوعة في المزهرية التي أمامي، لم تكن ابتسامتها باهته هذه المرة بل ابتـــسامة جمـــيلة ترتـــسم على وجه دائري استطعت أن أتبين ملامحه بوضوح شجعتني ابتسامتها أن أقول لها:

ـ « مـــنذ مـــدة أتوق لرؤية امرأة جميلة مثلك ».. قالت وهي تقترب مني وابتسامتها تزداد اتساعاً :

ـ « منذ أن قابلتك أحسست بأن هذا ليس لقاءنا الأول » .. وبهمس ويدي تلامس يدها قلت :

ـ « حركـــي برقك واجعلي رعود عواطفك تزلزل سماء أحلامـــي، دعينـــي أمطـــر، دعيني أبلل أمانيك بغيث وعودي، وأرســم صـــورتك كقوس قزح تعتلي غيوم ذاكرتي، دعيني يا أرضـــي الموعودة أفجر فيك شلالاً هديره صدق كلماتي وعلى ضفتيه تزرعين ابتسامتك، وفي موسم الحزن المتنكر بفرح الغد أقطف أجمل ابتسامة تتفتح بها شفتيك » .. اقتربت أكثر ورائحة عطرها تخترقني وهمست بصوت خافت :

ـ « حدثنـــي عـــن نفسك منذ البداية » .. وبحرارة الدم الثائر في عروقي قلت :

ـ « الـــبداية كانت بصرخة احتجاج لا أتذكرها، أعقبتها زغـــرودة طويلة من امرأة كانت خالتي، جمعت كل نساء الحي ليـــشهدن قـــدوم مخلوق جديد يشارك من سبقوه في الأكسجين والطعـــام والـــشراب كـــنت أنا، ورجل يجلس أمام البيت وهو يهرش ذقنه مفكراً في هذا العبء الجديد والمفاجأة المتوقعة كان أبي، اختارت جارتنا اسمي، وغفل والدي تسجيل تاريخ ميلادي فـــي ورقـــة العائلـــة، وأصبحت من دون عيد ميلاد في جميع

سنوات عمري، وأصبح كل يوم أعتبره عيد ميلادي، وكل يوم أتمنى أشياء جديدة، واكتشف أنه ليس هذا اليوم عندما لا تتحقق، ولكـــن بكل تأكيد في هذا اليوم وإحدى السنوات ولد العديد من البـــشر، وإنهـــم يتمـــنون اليوم أشياء مختلفة، فمنهم من يتمنى رغـــيف خبـــز ومـــنهم لا يجدون ما يتمنون فلديهم كل شيء وآخرون عاجزون عن التمني وعن دفع ثمن الشموع وباختلاف أمانيهم يجمعهم يوم واحد وأنا في هذا اليوم تمنيت امرأة جميلة كنتِ أنتِ».. أفزعني صوتها وهي تقول:

- «اســـتيقظ يـــا أســـتاذ انتهـــى الدوام وأريد أن أقفل المكـــتب» .. نهـــضت بخجـــل فسقطت المزهرية من يدي، وخرجت دون أن أسألها عن رجوع الأستاذ.

* * * *

تسكع على أرصفة الذاكرة

« الرصيف الأول »

مات الكهل تاركا لهم عكازا ومسبحة وحكاية ... أخذ هو الحكايـــة وترك كل شيء جلس على الرصيف ومن بعيد ترقبه العــيون المــشفقة تـــرهف السمع للحكاية، جاء مطلعها يقول (لحظة ما، في مكان ما، في زمن الأمس المنطوي، خلف الأيام الماضــية، بأحـــزانها .. بأفراحها .. بقصص تصدق وأساطير لا تصدق .. كان الجرح أعمق، والنزف أقوى، والعذاب يكمن فـــي النـــسيان وبـــريق الذكريات يغرى بالتذكر.. كان الوقت يحتـــضر، يطرق الليل بدقائق واهنة، يستعجل الفجر الآتي من الـــسماء ليلفظ آخر الثواني الضائعة بين حنايا خيوطه .. مات الـــوقت وعـــبق الـــزمن برائحة عقارب الساعة تلتهمها حرارة شمس ليوم جديد وصوت عويل الرياح يشق ثوب الهدوء .. في لحظـــة ما .. لم يبق من الوقت إلا رماد لدقائق وثوان محترقة، نثرتها الرياح فوق جبل الأماني المستحيلة وأصبح الهواء مُشبعا بأحلام لا تجد من يراودها .. جاء الأمل يمتطى صهوة اليأس،

وقــف فــوق قمة الجبل وقال مواسيا: « إن الرحلة بين الولادة والموت تتسع لأكثر من رحلة، لكل رحلة حلم ولكل رحلة وقت جديد لا يموت ».. وقفل راجعا، فشرع الزمن الميت الحي في الــبكاء وتمخض الجبل عن خطيئة تبناها القدر واختار لها من الأســماء (العاطفــة) وبحبر لا يصلح للكتابة رسم لنا خطين متوازيين نسير.. أنت وأنا .. للأبد جنبا إلى جنب ولكن أبدا لن نــتوحد) ... ثم طوى لسانه فانقطعت الحكاية، فاتسعت العيون المشفقة بإشفاق دون أن تفهم.

* * * *

« الرصيف الثانى »

امــرأة فـــي العقد الثالث من عمرها، تحتضن طفلاً إلى صــدرها، بيــنما يتحرك في أحشائها الآخر تمشى ببطء على الرصـــيف ... تترنح ... تقف قليلاً ثم تواصل سيرها ويعاودها التــرنح ... تجلــس تحــاول فصل الطفل عن صدرها يرفض النــزول ويــشبك يديه الصغيرتين خلف رقبتها وقدماه ترفسان الأرض في احتجاج طفولي عن عدم تخليه عن صدر أمه ولكن تخذلـــه أصابعه الرخوة فيقع على الرصيف وتودعه أمه بدموع

حـــارة تدفـــي رصـــيفه البارد ... تتلقفه العيون المشفقة لترسم صـــورته وهو يمتص إبهام يده اليمنى ويخفي باليسري نصف ووجهـــه وعلـــى بُعـــد خطوات سمعت العيون المشفقة صوت ارتطام جسد بالرصيف وصرخة مكتومة لوليد لم ير الحياة.

* * * *

« الرصيف الثالث »

لم يكن أخوه ... كان روحاً هى روحه، تسكن جسداً آخر لـــيس جسده ... وقف على الرصيف ينتظر روحه القادمة من بعـــيد يحملهـــا الجـــسد الآخر وعلى الرصيف المقابل انتظرت العـــيون المـــشفقة وصول الجسد لترسم صورة تمازج روحين تفـــصلان بيـــنهما الأجساد .. اقترب الجسد .. وبشوق الروح ضـــمه بشدة. فأحس ببرودته تجمد حرارة اللقاء، ويصدر عنه أنـــين له صدى في داخله، هزة بقوة بين يديه ولكنه لا وزن له فرمـــى به للرصيف المقابل للعيون المشفقة لتكتشف أن الجسد أجوف غادرته الروح.

* * * *

« الرصيف الأخير »

جمع كل أمنياته وأحلامه في أمل كبير وأحكم عقــده في آخــر الــزمن ووضـــع منتصف الزمن على كاهله وأخذ أول الرصيف واتجه نحو المستقبل وبين الخطوة والأخرى ينظر إلى الخلــف خوف أن تسقط إحدى أمنياته أو يتبدد جزء من أحلامه خارج الأمل، وحث الخطى ولكن الرصيف لم ينته ...... أعياه الــتعب وأثقل كاهله الزمن، فجلس في ظل أحد الأيام وافترش الأمــل وتوســد أمانيه والتحف أحلامه، تحلق حوله القانطون والعــيون المشفقة فبعثر بينهم كل ما في الأمل من أحلام وأمانٍ واحتفظ لنفســه بأمنية صغيرة وهي بأن ينام من دون أن يحلم.

« انتــهى التســكع »

* * * *

جـثـتـي

.. كنت أرقب جثتي الملقاة على الرصيف والغارقة في الحبر والــدم، تجمــع حولها المارة وتهامسوا « ميت، مقتول .. ميــ .. مقــت – .. »، ثــبت أحدهم نظارته الطبية جيداً وتفحص وجهي ووقــف قــائلاً : « أنا طبيب، ومن ناحية طبية موته ليس ظاهرة علمــية »، تعلقت به الوجوه، أردف « إن عينيه تتحركان والموت يعني توقف كل الأعضاء عن ممارسة وظائفها الطبيعية ولا أستطيع أن أثــبت العكــس فهو ليس بالميت ولا بالحي » أقترح أحدهم شق الــصدر للبحث عن حياة في الداخل وافق الجميع وتم فتح الصدر، وتزاحمت الأيدى تبحث داخل صدري، جثا رجل على عينيه نظارة سوداء عند رأس جثتي وقرب وجهه من وجهي وهمس.

– « أنــت تعــرف إنهم لن يجدوا شيئاً داخل صدرك » وقال بصوت مرتفع:

– « كفــوا عن هذا العبث، هنا لن تجدوا شيئاً » وطرق بسبابتة ما بين عيني وقال :

– « إذا كان يوجد شيء فهو هنا » تساءل الطبيب.

– « وهل سنشق رأسه ؟ » ..

ـ « لا .. لا.. يكفـــي أن نحدث به ثقباً لرؤية ما يدور بداخله ».

فـــتح الطبـــيب حقيبـــته وأخرج عدسة صغيرة وأدوات جـــراحية وأحدث ثقباً على حجم العدسة وثبتها عليه،.. تملكني الـــرعب وأنا أرى عين الطبيب كبيرة تتلصص من الكوه داخل رأسي، همس الرجل صاحب النظارة السوداء للطبيب.

ـ « لا تبح بكل ما ترى » وتساءل الجمع حوله بلهفة.

ـ « ماذا ترى ؟ ماذا ترى ؟ ».

تـــأوه الطبـــيب أكثـــر من مرة وفي كل مرة يتساءل الجمـــع،.. قال : « ثلج، نار، هياكل، عيون متسعة،قصاصات، قبور، حبر... » .. فكرت لو أنني أستطيع أن أفقأ عين الطبيب المتلصـــصة، صفعني الطبيب بقوة وهو يصرخ « عينى أنا يا ميت ؟! » اندهش الجمع من حوله وتراجعوا للخلف وبعد نقاش طـــويل دار بـــين الطبيب والرجل ذى النظارة السوداء تم على أثـــره فصل رأسي عن جسدي وسد جميع ثقوبة بالقطن المعقم حتى عمني الظلام من الداخل وحملوه وذهبوا وظلت جثتي ملقاه على الرصيف غارقة في الحبر والدم.

* * * *

حــارس الـمقــبرة

خـــيم الوجوم على الجميع مصحوباً بحيرة وحزن عميق. وهــم يلــتفون حول الجسد المسجى بينهم، لرجل لا تدل تقاسيم وجهه على عمر معين، فكل عمر تتخيله وأنت تنظر إليه تجده عمره، بينما يتساءل بعضهم: (كيف مات ؟!!) هذا هو الوحيد الــذي لــم يخطر على بال أحد أنه سيموت، أو سقط سهواً من ذاكرتهم إنه بشر مثلهم...

عــرفوه حارســاً للمقبــرة، بملابسه التي لا تتغير مثل ملامحه الجامدة على حدث مرعب وقع منذ زمن حفر تفاصيله في تعاريج وجهه الذي لا لون له، عند استقبال كل جنازة يتقدم الــتابوت ويرشــدهم إلــى مكان القبر، يتسلم منهم ورقة الأمر بالــدفن ويقف معهم إلى أن تنتهي مراسم الدفن لا يسأل .. من هذا ولا كيف مات ..

ويــرحل الجميع ويبقى هو وحيداً بين القبور، في انتظار أن تأتي جنازة أخرى .. لا يحزن .. ولا يفرح .. وكأنه أفرغ مــن مــشاعره وأصبح هيكلاً عظمياً تكسوه طبقة من الجلد، لا فــرق بينه وبين الموتى إلا أنه يتحرك ويتنفس وكأنهم انتخبوه

من بينهم ليقوم بهذا العمل، كل ما يقوله: « أين الورقة ؟.. أدفن هنا ».

ويلتــزم الصمت .. ولم يصدق أحد أنه قد مات، شعروا بأنـــه خدعهم طوال كل هذا الزمن وهاهو يموت ليصبح له قبر مثل هذه القبور .... ولكن من سيرشده إلى قبره وكيف سيدخل القبر من دون ورقة ؟

واكتــشفوا أنهـــم أيــضاً لا يعرفون حتى اسمه .. مجرد حارس للمقبرة.

* * * *

حنين لكلمة عتاب

عندما دقت الساعة في الغرفة المظلمة دقة واحدة أدركت أنها قد تجاوزت منتصف الليل بساعة ولازال طعم التبغ يخلف مرارة أشعر بها في حلقي .. تلمست بيدي الطريق إلى الكوب الموضوع فوق الطاولة الصغيرة بجانب سريري إلا أنها تعثرت به فانسكب وهوى مرتطماً بالبلاط ولكنني لم أتحرك وأجلت عمل تجفيفه للصباح، وبعد قليل خطر لي أن علبة التبغ بجانبه ربما أفسدها الماء، ولم أهتم مادمت أحتفظ بغيرها تحت وسادتي .. نمت على جنبي الأيسر حيث يوجد المذياع عادةً بيني وبين الجدار وأدرت مؤشرة ببطء وأنا أنصت لتوارد الحان ولغات مختلفة تتساب بضعف ووضوح وتداخل، وبعد صمت قصير تدفق صوت هامس من إحدى المحطات قائلاً: « صباح الخير ».. توقفت .. سبحانك ربي، يشبه صوتها تماماً النبرة نفسها التي أدمنتها .. « قلت لك صباح الخير » .. شيء ما في داخلي انتفض أحسست بوهج دافيء يجتاحني .. « إلى هذا الحد تكرهني وترفض حتى أن ترد تحيتي؟ ».. جلست وذهولي يشل لساني .. « لم أكن أعرف أن صوتي يولد لديك كل هذا

الرعب؟ ».. « أنتِ .. أن .. أ.. م .. » .. ولم أدر ماذا أريد أن أقول أو ماذا قلت .. قالت : « أتذكر هكذا كان أول لقاء بينــنا عجــزنا عــن الكلام .. آه .. ذلك اليوم مازالت أحداثه موشـــومة في ذاكرتي بكل دقة وقفت أمامي كطفل كبير تعبث بعلبة التبغ بين يديك، ومن حين لآخر تسترق إلي النظر وطال وقوفــنا وطال صمتنا وأخذت الكتاب الذي كان في يدي فكتبت بــيت من الشعر لنزار القباني حفظته ورددته كثيراً.. إذا وقفت أمــام حسنك صامتاً ..فالصمت في حرم الجمالِ جمال.. كلماتنا في الحب تقتل حبنا.. أن الحروف تموت حين تقالُ .. »..... « نعــم أذكــر وقلتُ لك يوماً ما سأكون شاعراً وأقول فيك في الــيوم ألــف قصيدة وضحكتِ كثيراً » .. قالت وهي تضحك: « وقلــت لك يومها سأكون عجوزاً كبيرة وأصاب بثقل السمع ولن أتمكن من سماع قصائدك » ... « نعم .. معك كنتُ أحلم، حــبك أيقظ أحلاماً كانت تغط في سبات المستحيل، حبك علمني أن للحــياة قانــون آخر لا يقع تحت طائلة الموت وأن للصمت متعة لا يدركها إلا الصامتون » ... قالت:

- « لكنك رحلت » .. « منذ غادرتك .. منذ أن هجرت شــطأن عينــيك تدفعني لذة الرحيل لمرافيء مهجورة وأنا كلما

أنظـــر خلفـــي أشعر أن مد كلماتك يحاول جزر تفكيري، أبتعد أتوغل في البُعد أجدك تتحدينني في بُعدي .. طيفك .. كلماتك .. تلاحقنـــي وأجد خواطري المسكونة بك تغريني بالرجوع إليك فاغتـــصب لحظة عناد من ضعف عواطفي وأواصل الرحيل » .. قالت :

ـ « والتقيـــنا في الرحيل » ... « والتقينا وأحسست أن كلماتـــك تـــتململ فـــي أعماقـــك تتوثب للخروج خلف شفتيك المطبقتين تصطدم بها تتحرك شفتاك ببطء وبدكتاتورية طاغية تـــسيطرين علـــيها وتمـــوت الكلمات الملتهبة على نعش لسانك وأرى المـــأتم فـــي عينيك وصور لحروف خالية من أي معنى ترتـــسم مع ابتسامة باهتة وقفت مدهوشاً .. صامتاً .. ورجعت الدهـــشة تجر أذيال الخيبة والصوت اليأس في داخلى والمفرغ مـــن كـــل أمل يئن .. يئن .. لقد تغيرتِ كثيرا » .. شعرت بـــيدي تؤلمني أثر اصطدامها بالمذياع الذي تصدر عنه شوشرة مزعجة أقفلته وواصلت النوم.

* * * *

دائـــرة ضـــوء

اســـتقر بـــه الرأي أن يجلس بجانب سيدة تبدو من بعيد جمـــيلة، غير أنه أنكر بينة وبين نفسه أن هذا هو السبب الذي دعاه للجلوس على المقعد المجاور لها، قال لها بينما هي منهمكة فـــي الـــبحث عـــن شيء ما في حقيبة يدها: « هل هذا المقعد شاغر؟ ».

وبنـــصف ابتـــسامة باردة هزت رأسها بالموافقة، جلس وشعور بالراحة يغمر نفسه، فهنا لن يتعرف عليه أحد وبسهولة أيـــضاً سيـــستمع لـــردود فعـــل الجالسين من حوله على نص مـــسرحيته ومـــن دون المجاملة التي اعتاد عليها من أصدقائه، أطفئت الإضاءة وانشقت ستارة المسرح عن الخشبة مظلمة إلا مـــن دائرة ضوء على امرأة بطنها منتفخ، جاثية على ركبتيها ورأســـها مـــنكس وصـــوت موســـيقى هادية تنبعث في أرجاء المسرح، اتسعت دائرة الضوء لتشمل رجلاً أشعثَ الشعر، يقف خلفها ويعقد يديه أمامه في استسلام ونظره مسمراً عليها، وببطء رفعـــت المـــرأة رأسها وتلاشى صوت الموسيقى، كان وجهها ملطخاً بالدموع.

قالت :

- « كيف يطاوعك قلبك لتركنا ؟ ».

قال:

- « لكم الله ».

وهى تضع يديها على وجهها وبصوت متهدج.

قالت :

- « ألم نتفق منذ البداية على أن نصنع المستقبل ونقتسم آلام الزمن باغتيال جنوح أحلامنا، ماذا أقول لهذا الآتي؟ ».

وهى تضع يدها على بطنها، وتابعت « المتكور في علم الغـيب، يرفسني أحياناً ليذكرني بحلول موعد وصوله، منتظراً انفـراج سـاقي ولا يعرف أى مصيراً ينتظره، ماذا أقول لـه عندما يخرج ويسألني عنك ؟؟ ».

قال بصوت يائس :

- « قولي له ذهب ليحقق أحلامنا ».

ردت بعصبية : « عن أي أحلام تتكلم ؟؟!! ».

ووقفت واستدارت نحوه قائلة :

ـ « ألـــم يكـــن حلمك أن يجمعنا بيت صغير نجعله جنة تصدح فيها ابتسامات أطفالنا ؟؟ ».

وبهـــستريا أقـــرب للصراخ أردفت « قل قل لي الآن ما كنت تقوله ».

مسحت دموعها بظهر يدها وأمسكت يديه وضاقت دائرة الـــضوء بلون أحمر على وجهيهما وتهادت موسيقى حالمة قال بتعثر:

ـ « عندما .. عندما نتزوج يا حبيبتي .. س .. سنبحث عـــن ب .. بيت صغير نعيش فيه و ن .. ن .. نجب طفلاً أو طفلين لا .. لا .. بل دستة أطفال و .. و.. ».

قاطعته ضاحكة وهي ترمي بيديه قائلة :

ـ «ســـتختار أنت أسم الطفل الأول وأنا الثاني .. أليس كذلك ؟؟ ».

اتـــسعت دائـــرة الضوء واختفى اللون الأحمر، تراجعت للخلف قائلة :

ـ « وما الذي غيرك ؟ ».

قال بهدوء:

« لـــم أكـــن أدرك أن الأحلام تنمو نمو الإنسان وتكبر ليصبح الحلم أكبر من الزواج والبيت والأطفال ».

قالـــت بـــصوت هامس: « والوطن ؟ » أطفئت الإضاءة وأنيـــر كشاف صغير فوق مكتب في زاوية الخشبة مُسلط على وجه الرجل وخلف المكتب يجلس آخر في العتمة، وتقدم بوجهه بمحاذاة الكشاف وقال بصوت قوي:

- « اسمك ؟ ».

- « حامد ».

- « أسمك الكامل ؟ ».

- « حامد على جبريل ».

- « عمرك ؟ ».

- « لا أدري ولكن أبي كان يقول أن أمي وضعتني قبل أن تضع الحرب أوزارها ».

- « أي حرب ؟ ».

- « لا أعـــرف لكـــنها أحد تلك الحروب التي يُقتل فيها الناس وعندما نسأل عن أحدهم يقولون قُتل في الحرب ».

ـ « حالتك الاجتماعية ؟ ».

ـ « لـــدي امـــرأة وافـــق المأذون على شرعية نكاحها وأستطيع أن أثبت لكم ذلك بالعقد المُبرم بيننا ».

ـ « هل لديك أطفال ؟ ».

ـ « لا ولكن زوجتي بطنها تكور فقالت إنها حُبلى ».

ـ « ماذا ترغب في أن تنجب زوجتك ؟ ».

ـ « ذكر ».

ـ « لماذا ؟ ».

ـ « أبي قال يجب أن أنجب ذكراً ».

ـ « هل سبق التحقيق معك؟ ».

ـ « نعم أكثر من مرة ».

ـ « لأي سبب ؟ ».

ـ « مجرد اشتباه يا سيدي ».

ـ « وهل تعرف لماذا نحقق معك الآن ؟ ».

ـ « نعم نعم مجرد اشتباه ».

أطفـــئت الإضـــاءة علــــى كــل الخشبة، صفق الجمهور بحرارة، همس أحدهم كان يجلس خلفه في أذنه :

– « هل تسمح بالخروج معي لخمس دقائق ؟ ».

وفـــي مكـــتب مظلـــم خارج المسرح جلس الكاتب بينما كشاف صغير مُسلط على وجهه وسأله الرجل الذي كان وجهه بمحاذاة الكشاف بصوت قوي :

– « اسمك ؟ ».

* * * *

ظِـلال المَـاضي

قالت وهي تلتقط ملابسها المتناثرة:

- « أنـــتم هكـــذا أيها الرجال تلهثون خلف المرأة للوصول لهـــذه اللحظة ومن ثم تراقبونها وهي ترتدي ملابسها الداخلية بتلذذ المنتـــصر، كما تراقبني الآن وأنت مضطجع على السرير ومستلذ بـــسجارتك وانتصارك، وستنتهي منها كما انتهيت مني وترمي بها في المنفضة ».

لـــم أعلـــق علـــى حديثها، تمتمت لها « يوجد في جيب سترتي مبلغ من المال يمكنك أن تأخذي منه ما تشائين »

رمت ما بين يديها من ملابس واقتربت مني، كُنتُ دائماً مـــا أخاف ردود أفعالها الغير متوقعة، في عيونها نظرة مرعبة ولـــون وجههـــا متغير، تضغط بين أسنانها على شفتها السفلى، وضـــعت رأسي بين يديها ونظرت في عيوني نظرة طويلة، ثم بـــصقت في وجهي ورجعت إلى حيث ملابسها ودموعها تنهمر بغزارة، وقالت بصوت متهدج :

- « تعرف أنت ماذا ؟ » ولم تنتظر إجابتي ..

- « أنــت مجرد ذكر آخر تافه وضيع يتصور إنه حين يقــذف شهوته في جسد امرأة حقق كل انتصارات فحولته، ألم تــدرك أنــك أول مــن توافقت فيه رغبات قلبي وجسدي؟ » وأردفت وهى تهز رأسها نفياً ..

- « لكــنك لا تخــتلف عن غيرك كثيراً، صدقني حتى المرأة التي تبيع جسدها في اليوم عشرات المرات يظل قلبها غير قابل للبيع ».

حاولــت أن أبــرر لها عرضي على سبيل المساعدة بين الأصــدقاء لا أكثــر، أشــارت بـيدها بأن اصمت، وهى تمسح دموعها وتضع المساحيق على وجهها وعندما انتهت جلست على حافة السرير وأخرجت من حقيبة يدها علبة سجائر وأشعلت لفافة ســحبت منها نفسًا عميقًا نفثت دخانها إلى أعلى ورمت بها تحت قدميها وسحقتها بعصبية، التفتت نحوى مبتسمة وقالت :

- « أنا آسفة لم أكن أقصد، اعذرني مزاجي لم يكن على ما يرام ».

وأضافت بسخرية :

- « أيــضاً مصطلح الصداقة لم أعتد على تناوله في

حياتـــي ». اضطجعت على ظهرها ووضعت يديها تحت مؤخرة رأسها وعيونها شاخصة في سقف الغرفة وبصوت يقترب للهمس قالت :

ـ « أنـــا منذ طفولتي لم يكن لدي الكثير من الأصدقاء بل فـــي الحقــيقة لم يكن لدي أصدقاء أبداً، يوماً ما عثرت على قطة صغيره.شعرها ملون لا تتصور كم فرحت بها، شعرت أنني أخيراً وجـــدت صديقة وأصبحت لا تفارقني إلا قليلاً وعندما تفتقدني لا تـــتوقف عـــن المواء حتى تجدني، أسميتها (آجاد) على اسم ابنة جيـــراننا التـــي منعوها أهلها من اللعب معي، كانت لا تنام إلا في حـــضني، أربت على ظهرها فتصفن وكأنها كانت تستمع لما كنت أحكـــيه لها عني، خرجت (آجاد) ذات يوم ولم تعد، بحثت عنها فـــي كل الحي ولم أعثر لها على أثر، ليالى طويلة لم أنم ولم اكف عـــن البكاء، وفي صباح ماطر كئيب وجدتها مشنوقة تحت شباك غرفتـــي، كان أسوأ أيام حياتي، دفنتها تحت الشباك وزرعت فوق قبـــرها نبـــتة لم تنمو أبداً ورغم أن الموت بعد ذلك عرف طريقه لحياتـــي وخطـــف وجـــوه كنت آلفها كوجه أبي إلا أنني لم أشعر بالحـــزن المقرون بالألم مثل ما شعرت به لموتها، كان موت جزء من روحي ترك فراغاً للآن أحسه حتى بعد أن كبرت، كانت تقول لـــي جدتـــي أن جميع الكائنات الحية تشترك كلها في روح واحدة

كبيــرة وعــند مــوت إحداها كلها تشعر بوخزة ألم حتى دونِ أن تعــرف ســببه، ولم يفارقنى هذا الوخز إلى أن التقيتك، كنتُ في حاجــة ملحة إليك بعد أن مللت تكرار الوجوه التي فرضت نفسها فــي حياتي لم يكن فيك ما يلفت انتباهي غير أنك رجل مُحطم من الــداخل، أتذكر تلك الليلة جيداً، استوقفتني في أحد الأزقة الموبؤه بالفقر والوجوه البائسة، لم يبدو عليك الارتباك وأنت تكلمني تفوح مــنك رائحــة اعــتدت علــيها في كثير من الليالي، طلبت مني مــصاحبتك وأنــا لم أتردد، ذهبت معك كوجه جديد أضيفه لقائمة زبائنــي وعــندما دخلنا هذه الغرفة لم تطلب مني نزع ملابسي، بــادرت أنــا بانتزاعها بحكم العادة غير أنك طلبت مني التوقف، أدهــشنى تــصرفك، إذن لمــا أنــا هنا ؟!!.. قلت ستقبضين ثمن حــضورك ولكن ابقي معي أريد أن أتحدث إليك، تلك الليلة قلبت العديــد من الموازين في حياتي، احتسيت معك الخمر بشراهة، آه كــم أشفقت عليك كنت مُحبطاً والدمار ينخر نفسك وضعت رأسك علــى صدري وأنت تنتحب حتى طال بلل دموعك ملابسي، أذكر بوضــوح تلــك الليلة بكل تفاصيلها، لم تكن إلا مجرد طفل كبير وبلــسان مثقل بكلمات مؤلمة حتى الثمالة تحدثت عن كيف حاصر الجــيش مدرســتك وكيف تم جمعكم في ساحتها واختار الضابط طوال القامة دون النظر بالعمر وكنت أنت وصديقك (محجوب) من ضمنهم وتم تجنيدكم إجبارياً، تحدثت كثيرا.

اســتمعت إلــيك بكل انتباهي، أحسست أنك تحكيني ووقفت متــرنحاً وأنــت تحــاول التجرد من ملابسك لتطلعني على جروح تركت ندوبها في جسدك وأنت تتحدث عن مقتل صديقك (محجوب) في حرب الجنوب وكيف تم ذبحه بسكين مثلوم؟! وكيف أنك نجوت بأعجــوبة لأنك كنت تنام بالعكس في الكيس المخصص للنوم وعن احــتمالك لحــز الــسكين فــي قدميك وأنت تستمع لصوت خوار (محجــوب) وهــو يذبح في جانبك ولم تحرك ساكناً وعشت بذنب مقتله لليوم، بكيت معك وأنا أتذكر كيف شنقت (آجاد) تحت شباك غرفتــي وعندما تحررت من ملابسك كان جسدك مساحة كبيرة من الكــدمات والندوب وجروح لم تندمل بعد، قلت عنها بمرارة .. إن جــسدي هــذا جدار لذكريات سوداء محفورة عليه للأبد منذ فراري من الحرب بل فراري من ذنب مقتل (محجوب).. وكيف أنك تهت فــي الصحراء لسنوات ومن ثم تم سجنك واتهمت بالخيانة، شاهدت فــي جسدك نفسي وتعرضي للاغتصاب ولم يتجاوز عمري خمسة عــشر سنة، عندما انفتح باب غرفتي ذات ليلة ودخل رجل عاري تسبقه بطنه المترهل وانقض على جسدي ينهشه بنهم ورائحته النتنه وهو يلتصق بي تكتم أنفاسي وتركني مكومة على سريري وبقع من الدم تلطخ ملابسي الممزقة، ومن بعيد وبصوت خافت سمعت زوج أمــي يعاتب صديقه لدخولــه غرفتي، وفي الصباح عندما أخبرت

أمـــي لطمت خدودها وحذرتني من أن يعلم أي أحد ما حدث خوف الفضيحة، ولزمت الصمت حتى بعد أن كرر ما فعله مرات أخرى، كلمـــا جلـــس مع زوج أمي يحتسيان الخمر ويتعاطيان الحشيش بل تعـــدى الأمر ذلك بعد أن لازمت أمي الفراش أثر تعرضها للمرض أصبحت أنا من يقوم على خدمتهم ومن معهم وأحياناً مجالستهم ولم أعـــد قادرة على مغادرة هذه الدائرة، شاهدت كل ذلك يا صديقي في جـــسدك، أحسست أننا كلانا مُغتصب بشكل مختلف وقد نختلف في طـــرق تعبيـــرنا عنه، أنا أجوب الشوارع للبحث عن رجل بملابس محتـــرمة وسيارة فارهة اعتاد على خيانة زوجته ولم يذهب للحرب ولـــم يبك من أجل قطة، وأنت تستهويك الأزقة الضيقة تمارس فيها تـــرنحك وتحكي لمن يصادفك عن (محجوب) وكيف ذُبح بجانبك ولـــم تحرك ساكناً ».. ساد بيننا صمت طويل كأنه سنوات، قطعته هي بضحكة عالية وقالت : « لهذا استحققنا ألقابنا بجدارة .. العاهرة والمجنون ». وواصلت الضحك وارتداء ملابسها.

* * * *

مـجـرد حـكايـة

كــل من تردد على متجر (المبروك) العتيق المصنوع مــن الطــوب، عرف الخمس قوارير الموضوعة بعناية على الرف الغارق في الغبار، لم يشتر منها أحد وأيضاً لا أحد يعرف مــا تحــويه ولكنهم اعتادوا على رؤيتها كاعتيادهم على رؤية ســيقان الــشجر الصغيرة المقصوصة بتساو والمتراصفة على ساقين أكبر حجماً تعترضها في السقف والمنحنية قليلاً من ثقل التــراب والأحجــار وبــراميل المياه القديمة التي أكلها الصدأ والمجمعـــة فوق السطح لكي يصمد السقف أمام رياح الخريف التــي تهـدد زبــائن (المبروك) المتحلقين يلعبون (السيزة) بجانــب الدكان من أن يقع عليهم أحد البراميل وفي كل خريف يعــدهم بأنــه سيعيد بناء السقف بصفيح جديد وسوف يشتري (فنار قاز) بدل الشمعة الموضوعة بجوار الميزان ذي الكفتين النحاسـية فــوق قطعــة من الحديد مستديرة تزن عشرة كيلو جرامات، حتى يتمكنوا من السهر إلى ما بعد صلاة العشاء، كل هذا يحدث بعد ان يبيع الخمسة قوارير ولم تتحرك القوارير ولم يغير (المبروك) السقف ولا الشمعة وفي ليالي الصيف الحارة

التي يختلط فيها صوت (رزق الله) وهو يحكي لمن حوله عن رحلته اليتيمة إلى (بر الحبشة) بصياح الأطفال يلعبون (منين نطلـــع ساس حديد) ويقاطع (جابر) حكاية (رزق الله) في بعـــض التفاصيل التي سمعها عن والده قبل وفاته في أن هناك واديًا كبيراً تقطنه آلاف الثعابين وبقدرة قادر لا تخرج منه أبداً ولـــولا أن والـــده « نادتـــه التربة هنا » لسقط في هذا الوادي والتهمته الثعابين، في هذه الليالي يجتمعون بجانب سور الجامع للاستماع لحكاية (رزق الله) بشغف كأنهم يستمعون إليها لأول مـــرة ويساعدهم الظلام في تخيل أحداثها وبنهاية الحكاية تكون الـــسهرة قـــد تكاملت، فيتحركون بتكاسل متجهين إلى منازلهم مخلفـــين وراءهـــم أعقاب السجائر المغروزة في الأرض وفي شقوق سور الجامع، وعلى شجرة الكافور الوحيدة أمام المدرسة تجـــتمع مـــئات العـــصافير مع غروب الشمس وكأنها تتسابق للحـــصول علـــى مكـــان تبيت فيه وترتفع الزقزقة إلى ضجيج صـــاخب ومع حلول الظلام تكون الشجرة ساكنة إلا من صوت حفيف الأوراق والقرية هادئة إلا من نباح الكلاب وصياح ديك يستعجل الفجر ليوم جديد يحمل نفس الأحداث.

* * * *

نزيف حاد في خواطر تحتضر

النزيف الأول :

داهمنـــي حـــبك كالمطـــر والريح، أنا مسكون ببحيرات الحـــزن الممزوجة بالوحدة وبأشواق ترتعش لحلم شارد قد يأتي وقد لا يأتي .. هزمت وجرحت عبرت المجهور أبحث عنك .. اشـــتقت إليك في ليالي التيه والخوف والغربة، صافحت عيون الـــناس بحـــثا عن عينيك، تحسست ملامحها بحثا عن ملامحك الموشـــومة في أحلامي وذاكرتي كل يوم أصنع من حلم العثور عليك مجدافا أعبر به محيط أحزاني .. غريبا أنا من دونك في عالم لا يهدأ ضجيجه، أقول لك إذا كنت لن تسكنينني فأبقي لي حلمـــا أحلـــم كل يوم بتحقيقه، أمنحيني يوما يوما فقط من أيام عمرك المتشابهة أحس في هذا اليوم .. بأنك حبيبتي .. دعيني أعـــيش في هذا اليوم كل أيام عمري .. حركي ركود عواطفي بأوتـــار همـــساتك .. أحـــتاج فـــي هذا الركود لعاصفة الحزن المترســـب حتى العمق فأيام مغيمة على وشك أن تسكب آهات صـــماء على مسامع الغد الصارخ في رحم الزمن قبل أن يولد يحفـــر بلحظاتـــه نقوشا على جدار الأحداث القادمة، أكاد أراها

تـــدور أمامـــي مترنحة ثملة باليأس تتوعدني بمزيد من الألم، أحـــتاج لامرأة تمنحني يومًا مجنونًا نلعب معا ونبكي معا أريد وأنـــا فـــي قمة جنوني أن أتجرد من أقنعتي الوهمية وتنصهر قوالب الدموع المرتبة والموضوعة بعناية فوق مشاعري فأبكي .. أريد أن أقذف الطوب في نافذة إزعاجي لتزعج وأتعري أمام قـــناعات عقلي وأسرق في وضح النهار أحلام ذاكرتي وأشعل الـــنار فـــي ذكرياتها العتيقة، فليتشقق الجسد المجبول بالكتمان وتتبـــثق منه نزواته الكريهة وتتلطخ جدران يقظتي بكل أوهام الحاضر والماضي وتتحرر عصافير بأنصاف أجنحة خرساء لا تزقـــزق .. أمنحينـــي يوماً أقرأ فيه كف الأيام القادمة أتنبأ فيه ببركان يهز الزمن .. لعل الغد يُجهض.. لعل الغد يولد ميتاً.

النزيف الثاني :

.. كـــان العقـــل يتأهب لرحلة سفر في عمق الجنون، ولحن جنائزي يسمر العيون على زمن توقف في مروره أو مـــر واقفـــاً، ينـــشطر الفكر بين الرحيل والتسمر، يقتم لون الأشـــياء.. ويحكـــي الـــشيء عن نفسه يقول: (بين الشيء واللاشيء لا يوجد شيء)، تبتسم اللحظة بحزن ويقهقر الوقت القاتـــل للعمر فيصطك الفكر المنشطر حائراً أية لحظة وأي

وقت يختار، قالت اللحظة المبتسمة.. (لا تحاول أن تغتالني بفكـــرة تـــرغب فـــي إجهاضـــها) .. عم السكون الأشياء وتمخضت اللحظة عن فكرة ولدت بشلل نصفي تقول الفكرة فـــي الشطر الاول (لماذا يرفض البوح التحدث ؟ خوف أن يـــتكلم شـــبح العمق يذكر الأشياء بطبائعها، يصور أشكالها يـــتعمق فـــي بطن الباطن وينحسر الثوب الخفي عن أجساد مشوهة لعرائس أصبحن دُوماً، تحلم بعرس، تحلم بطبل يوقظ الإحـــساس المـــتوهج بلـــيلة العمر في ظلام الأيام المتلاحقة وتـــستيقظ الشمس لتجفف الدم المسفوك وتسقط النجوم شهباً تطـــارد آخـــر قطعـــة من الليل).. قالت في الشطر الثاني (تحركنـــي أشيائي ألجأ لوسادتي المهترئة أبعث فيها الدفء بأنفاســـي المشحونة بتعاسة ليلى اللامتناهي، تشتعل الوسادة تعـــساً يلفـــح وجهي بسهاد لزج يترك آثاره حول عيني رغم ضـــوء الـــصباح .. أنا يا سهاد الليل مسكون بك حتى أنت، عهدي بك قديم منذ التقيتك في إحدى الليالي، رافقتني دون أن أعـــرفك، اســـتهواني اســـمك حين عرفتك، حاولت مناداتك وجدتك تكلمني مني، لم أطردك تركتك تعيشن في.. فأنت لم تخلق إلا لتعيش) ..

توقفت الفكرة .. ومازال النزيفُ مستمرًّا.

وإلى أن يتوقف النزيف سنلتقي.

* * * *

وجـه معفـر بـالنــدم

تـــناولت الـــدواء تحــت إلحاح زوجتي .. « ستندم حين يعاودك المرض » خرجت وصوت الباب وهو يقفل بشدة خلفي مازال يولول في أذني بطنين متواصل يكاد يخرق طبلتها. سكون غريب يستوطن نفسي واصطدامي باكتاف المارة. يوحي إلي بأن سيرى عكس اتجاه الآخرين وتلاحق صور الوجوه وتفرعها من أمامي يجعلني أنظر إلى رجلي ربما كنت مسرعاً ...

ولكن إلى أين؟ هي خلفي .. وصوت الباب مجرد تذكره يعاودني الطنين المزعج، أبطأت السير، عرفت هذا من تصفح ملامح الوجوه المتلاحقة، التي أحياناً تنتصب أمامي مباشرةً ... ماذا لو أسقط ..هل ستدوسني الأقدام !! ولماذا تدوسني ؟

أنـــا في سقوطي ووقوفي أشغل حيزاً من الفراغ هو ملكي مادمــت أشـــغله ومع هذا لا أشعر بأني أشغل هذا الحيز بل أشغل الحيز الذي أشغله أنا داخل هذا الجسد وهذا الجسد يقف هنا ولو لم أكــن أنـــا داخله لكان غيري، فهو ملكي مادمت بداخله، كيف لم يخطر لي قبل اليوم أنى أشغل حيزاً متنقلاً .. آه .. قبل اليوم، هي قالـــت بعد اليوم ستندم أو ربما قالت قبل اليوم، لم أعد أذكر غير

إنهـــا قالـــت ســـتندم، وكيف أندم، عندما أشعر بشيء سأذهب إلى الطبيب فيقول .. عندك ندم حاد !! ويصبح وجهي معفراً بالندم ،، كـــل الوجـــوه التـــي شاهدتها معفرة بالتراب، انتصب أحد الوجوه أمامـــي مباشـــرة .. لم يكن معفراً بالندم ولا التراب وقال .. « لا تقـــف هنا .. أمشي أو تنحى جانباً » .. نظرت إلى رجلي وجدت أنهمـــا واقفتان ولا أدرى كم مضى على وقوفهما، سحبتهما ببطء للأمـــام حتـــى شعرت بأني أمشي، ولكن إلى أين ؟ هي خلفي .. وصوت الباب وطنين وطبلة ووجوه وحيز، وأنا أمشي .. ورأيت الـــشمس تصل من رحلة مملة منذ الصباح نحو الغروب ووجهها مصفر تشوبه حمرة ربما هي أيضاً تسمع صوت الفجر يقفل الليل بـــشدة خلفهـــا وهو يقول ستندمين، وهاهي في مشيها تعود نادمة ووجههـــا معفـــر بحمـــرة ،.. « ابتعد يا معتوه السيارة قادمة »، وصـــوت كوابح يمزق السكون الذي يستوطنني وارتطمت السيارة بالحيز الذي أشغله فسقط مهشماً على الأرض .. وسألني الطبيب :

- « من وصف لك الدواء الذي تناولته قبل خروجك من البيت ؟ » .. وقبل أن أجيب سألته :

- « هل وجهي معفَّر ؟ ».

* * * *

اغتيال مُعلن

منذ أن شاهدتك ... شاهدت موتى في حدقة عينيك .... استوقفت قلبي الراكض نحوك ... ولكنه كان قد سبقني إليك ... انصاع كالمعتوه لوعيدك ... خفقاته المجنونة في حضورك ... تعلن ولاءه المطلق لهذا السحر ... رتبت معك حوارًا للتفاوض ... عرضت عليك أن تشاطريني قلبي ... تشاطريني حياتي ... وبموقف المنتصر رفضتِ مبدأ المشاطرة ... وأعلنتِ احتلالك لكل القلب ... لكل العمر ... تلكأت في الخضوع ... وفتحت كل خزائن ذكرياتي لمقاومتك ... كان سقوطي مريعًا ... كنتِ غامضة كالسر ... مفعمة كالحيوية ... وبرقة النسمة تسللتِ عبر مسامات مشاعري ... كنت أشاهدك وأنتِ تدخلين ... أصاب الوهن كل أوصالي الرافضة ... سرعة سريانك بطيئة ... ولكنها أرغمتني على الخضوع ... أدركت أنني في حالة اغتيال مُعلن ... فمنذ أن شاهدتك ... شاهدت موتى في حدقة عينيك ... واستسلمت ... أحببتك ... ونعيتُ قلبي.

* * * *

الحلم الموروث

قالت الفتاة باندهاش لجدتها : " عندما نام كل من في البيت وداهمني النعاس، شاهدت رجلاً له لحيه بيضاء تجاوزت قبضة اليد وشعر رأسه أسود، لم أشعر بدخوله، اقترب مني وجثا بجانبي، أخذ يدي اليمنى وقبلها، أحسست بأنفاسه تلفح كل جسدي، ثم أعادها ببطء إلى حيث كانت وربت على خدي، نظرت إليه فلم أرتعب، حاصرني بألفه غريبة، عيناه تلمعان بشعاع لا لون له وعجزت عن تحديد باقي ملامحه فكل ما أراه أمامي لحيته البيضاء وشعره الأسود وعينيه، عرفته رغم أننا لأول مرة نلتقي، سألته .. " أنا أعرفك ولكن لا أتذكر من أنت ؟ " ... لم يتكلم، قلت له : " تكلم حتى أستطيع أن أتبين ملامحك " .. خرج صوته فرأيت وجهه ينشق عن فمه، كان صوته يشبه صوت أبى وأمي وأخي وحتى صوتي، أصواتنا جميعًا كانت في نبرة صوته .. قال بهمس : " أنا أهب الأحلام السعيدة كل ليلة لإنسان وفي هذه الليلة اخترتك أنتِ لأمنحك الحلم الذي ترغبين " .. وقفل الشق الذي في وجهه، فتزاحمت أحلامي بتدافع كل منها يراودني لأختاره .. سألته : " وهل أستطيع أن أختار أكثر

من حلم ؟" .. قال وباقي ملامحه تتكشف: " يا ابنتي ليست لدي القدرة على منحك كل أحلامك، غيرك ينتظرني بفارغ الصبر، فكري جيدًا واختاري حلمًا واحدًا فقط ".

وقعـت فـي مأزق الاختيار، أي حلم أختار وأنا كل حياتي أحـلام، ماذا أقول له ؟.. هل أقو له بأنني أحلم ببيت صغير على ضفة البحر من شرفته أشاهد قوارب الصيادين قبل طلوع الشمس يـتجهون جماعات وفرادى نحو عرض البحر وفي جعبة أحلامهم حلـم العودة بصيد وفير يطعمون به، أبناءهم وأشاهدهم أيضًا في رجـوعهم بعـضهم يغني وآخرون تسيطر عليهم الخيبة، منهكين تتهدل أكتافهم، ولكن هذا ليس كل حلمي .. هل أحلم بأن لا أستيقظ كـل صـباح لأجـد أبي يزمجر لاعنًا أمي لإهمالها كي ملابسه ويخرج غاضبًا ويصفق الباب خلفه شاتمًا كل السنين التي ضيعها بـرفقتها، وتظل هي تبكي طوال اليوم، أو أقول له أحلم بجناحين أحلق بهما في السماء أرتفع وأرتفع حتى يتعبني الطيران فأستريح فوق سحابة عابرة، وأنتظر الرياح لتحملني إلى حيث لا أدري ..

قلـت لـه : " أحـلام كثيـرة يا سيدي تعج بها مخيلتي، تـشابكت وصعب فصلها عن بعضها .. أسألك وله ستحقق الحلم الذي أرغبه؟؟ "

تمـــتم قائلاً : " لا يا ابنتي أنها مجرد أحلام تموت عندما تفتحين عينيك على الواقع ".

ورحـــل بهـــدوء كمـــا دخل فاستيقظت على صوت أبي يزمجر ".

قالت الجدة: " لا تشغلي نفسك به كثيرًا، فهو حلم موروث قـــد رافقنـــي مـــنذ قبل أن أقترن بجدك، كنت في مثل عمرك، زرانـــي ذات لـــيلة كان مازال شابًا عيناه تلمعان بالشعاع نفسه الـــذي لا لـــون لـــه، وقف بجانبي ابتسمت له فقد كنت أعرفه، حدثتني عنه أمي كثيرًا، طلب مني أن أحلم ورفضت .. قلت له: " إننـــي أصنع أحلامي بنفسي على مقاس قدرتي على التحقيق ولا حاجه بي لأحلام لا تتحقق ".. غضب مني ولم يعد يأتي إلا قلـــيلاً حتـــى أنقطع عن زيارتي، فحسبته قد مات وها هو الآن يأتـــي إليك بأحلامه العتيقة عتق عمره، أرفضيه فلا جديد لديه هو .. هو كما عرفته منذ زمن ".

* * * *

رضـوض في الذاكــرة

يـــومًا ما وقبل أن أعرف من أنا .. ولا أعرف من الدنيا غيـــر بقعتي الصغيرة حيث ولدت، وكلما نظرت للأفق أرى أن الـــسماء ملتـــصقة بـــالأرض على مرمى البصرة .. يخالجني الإحساس بأن مكاني هذا هو منتصف الدنيا .. أشعر بضيق لأن دنيتي صغيرة جدًا..

وتجـــاوزت تلك المرحلة حين عرفت أن بجوارنا مناطق أخـــرى، ولكن هاجسا آخر أصبح يشغل فكرى كلما رأيت أبى يخرج محفظته الجلدية التي أكل عليها الدهر ولم تمكنه أمي من الشرب، حيث ألبستها قطعة من القماش لسد ثقوبها لكي يحصي ما تحتويه من نقود التي بهت لونها من كثرة الخروج والدخول للمحفظة .. اتساءل من أين يأتي بها ؟ .. وبعد أن ألححت عليه بالـــسؤال أراد أن يـــضع لاســـئلتي الساذجة جدًا .. قال: " من الحكومة وعندما تكبر ستعطيك الحكومة نقودًا ".. وتخلصت من ذلك الهاجس وتولد مكانه فضولي طفولي .. ما هي الحكومة ؟ .. وتحيـــنت الفـــرص بعد الغداء والشاي لألقي بهذا الاكتشاف الجديـــد فـــي وجه أبي .. ويبدو أن اكتشافي هذا كان أكبر من

عمري أو غاية في الخطورة .. هذا ما فهمته من إجابته عندما قـــال: " هم ناس كبار ليسوا منا ".. وحين وضعت رأسي على الوسادة وفي تلك الواحة الصغيرة التي تسبق النوم عادة تخيلتهم فعـــلاً كبارًا لهم رؤوس كبيرة وأيادي ضخمة وبطون منتفخة، وإن الله هـــو الـــذي جعلهـــم هكـــذا لأنهم حكومة ونحن ناس، واغمـــضت عينـــي على هذه القناعة مع شعوري بالذنب لأني تكلمـــت عنهم بيني وبين نفسي وهم حكومة الله .. وأصبح هذا الحاجـــز الذي يفصل بيني وبين حكومة الله يكبر كلما كبرت .. والاســـئلة هي أيضًا تكثر وتكبر .. كيف يعيشون ؟ هل يأكلون ويـــشربون مثلـــنا مـــن أبار لون المياه فيها أحمر ؟ ويشعلون المصابيح بالزيت مثلنا ؟

وأخيـــرا تمنيت أن أرى أحدهم .. وتحققت الأمنية عندما ابعـــدونا عـــن (النجع) البيوت لأن أحدهم قادم لزيارة الشيخ ولكـــي لا ينـــزعج من رؤية وجوهنا البائسة وملابسنا الملطخة بالسمن .. يجب أن نبتعد .. واختفيت حتى سمعت أنه دخل بيت الشيخ وتحينت الفرصة واقتربت منهم متلصصًا من أحد الثقوب وكـــل نفـــسي رهبة وخوف من هذا القادم لأنه من الحكومة .. حتـــى شيخ القبيلة يخافه لأنه ارتدى أجود ملابسه التي كان لا

يلبسها إلا يوم العيد .. ورأيته.. وكم كانت صدمتي كبيرة حين لـــم أجده كما تخيلته .. فقط بطنه منتفخة صحيح، أما هو مثلنا لـــولا هذه الملابس التي يرتديها ونطلق عليها نحن (أفرنجي) وربطـــة العــنق تلـــك بألوانها الزاهية ويديه البضتين اللتين لم تلفحهمـــا الشمس أبدا ولا خشونة المنجل وأشواك الزرع أثناء الحـــصاد، وكلمـــا ابتسم هو قهقه الشيخ .. وتمنيت ألا يضحك حتـــى لا ينفجـــر شـــيخنا ونـــصبح بلا شيخ يتوسط بيننا وبين الحكـــومة، وسمعته يتكلم .. قال الشيخ: " أريد منك أن تضمن خمسة وخمسين صوتًا حتى أستطيع الدخول إلى مجلس النواب وبعد ذلك لك على كل صوت مواطن جنيه .. وما أدهشني أنه أيضا يتكلم مثلنا.

* * * *

لحظة وداع

ذهـــول غـــريب أصاب عيني .. هاهو الحزن يهزني .. يزلـــزل كياني .. كل مراكز الحس في نفسي تتناقل الخبر في سرعة مذهلة لترسم على وجهي مسحة من الحزن، ولكن عيني انفصلت بإحساسها عني واكتفت بنظرة بلهاء ساهمة في لاشيء، كمـــن لا يعـــي حقـــيقة مـــا يحدث، دمعة واحدة جادت بها أو اعتصرتها قسرًا بللت أهدابي.. وعندما جفت التصقت الأهداب بعـــضها بـــبعض، نظـــرت إلى نفسي من خلال المرآه الكبيرة المـــستندة إلـــى الجدار، وجه مذهول .. عيون مرتعبة .. بقايا إنـــسان مـــتهالك يجلس في زاوية معتمة يضم رجليه بيديه إلى صـــدره مـــتكورًا، يجتاحه البرد من الأعماق تسرى في جسده قـــشعريرة يهتز لها، وقفت في محاولة للهرب من ذلك الإنسان المتهالك وتركة في المرآة، خرجت إلى الشارع يخترق صمتي والصراخ المتواصل يؤكد لي حقيقة رحيلها، كل شيء في نفسي يرفض التصديق، كيف أصدق .. كل يوم أمامي تضحك معي، تحكي لي عن كل ما حدث في يومها الماضي، مهما كان الحدث صـــغيرًا، حتى أحلامها التي تراودها أثناء نومها كانت ترويها

لي وأحيانًا تبكي .. الآن أتخيلها تبكي .. أحس بحرارة دموعها تربك أصابعي المرتعشة وهي تسبح فوق وجنتيها .. كانت تبكي بصدق وتضحك بصدق .. لا .. لا .. ليست .. كانت .. بل ما زالت، إنها على قيد الحياة لم تمت ولم تفارقني، إني أراها تبتسم وتـــضحك وتحكـــي، كيف أصدق ؟.. من أين لي بعقل ساذج يصدق بسرعة، ومشاعر قوية قادرة على كتمان الحزن. عندما حملوها كان شعرها الأسود مشعثًا والدم يكسوه ووجهها معفرًا بخلـــيط مـــن الدم والتراب، هكذا حملوها كأي شيء انتهى إلى الأبد، ذهبوا بجسدها الممزق .. إنني أذكر تلك الدقائق بوضوح ولن تغادر مخيلتي .. ومع ذلك لم تمت .. إنها تعيش .. تعيش داخل نفسي.

* * * *

ذهـب ... ولـم يعـد

وضـــعت قدمي على قطعة من الورق المقوى مطروحة أمام أبي الذي أمرنـي بحدة:

" ثبت قدمك ولا تجعلها تتحرك ".

وتـــناول قلـــم رصاص من خلف أذنه وبداء في رسم شكل قدمـــي، وعند مرور قلم الرصاص بأصابعي شعرت بدغدغة فيها مـــا جعلنـــي أتحرك دون إرادتي، تمتم أبي ببعض الكلمات وهو يضغط يده بقوة على كل رجلي وعندما انتهى قال " أرفع قدمك ".

كان شكلها على حجم الكف.

أردف: " حجم قدمك يزداد كل سنة ".

أعقبها بزفرة، ابتسمت دون أن أعرف هل كان يمتدحني أو يتبـــرم مني، ربما ذلك سيزيد في ثمن الحذاء الذي يريد أن يشتريه لي على شكل الرسم ولم أنتظر باقي مراسم قص الشكل وطـــيه، خـــرجت لأنتظره عند بداية الطريق الترابية المتجهة للقـــرية والتـــي يقطعهـــا على الحمار ليصل إلى مكان المركبة الوحيدة التي تقله للمدينة للتبضع، لا أتذكر أن أبي قد قبلني يومًا

وكانت أجمل لحظات أصابعه شعر رأسي ولكنه لا يبتسم وأقف أنا أشاهده يلوح لي من بعيد وأتخيل أبتسامه ترتسم على وجهه قــبل أن تبتلعه الطريق الترابية ويختفي، ولا يعود إلا بعد أيام طــويلة وأنــا أنتظــر رجوعه ليردفني خلفه على الحمار وهو يــصف لــي شكل الحذاء الذي أبتاعه لي ويدعني أتخيل اللون بنفسي وهي ما يعتبرها المفاجأة الأخيرة التي يجب أن أكتشفها عند فتح الأكياس الخشنة للبضاعة.

وتمــضي أيام ولا أمل الانتظار ويتوالى غروب الشمس وشــروقها ولــم يرجع أبي ولم تفارقني صورته وهو يلوح من بعيد وشبح الابتسامة على وجهه تزداد اتساعًا، وإلى الآن أشعر بأصابعه وهي تتخلل شعري.

* * * *

غـــريب

اســتيقظ الجميع على صوت يصرخ من وجهة المقبرة، مــنهم مــن لعــن صاحب الصوت ومنهم من استعاذ بالله من الشيطان الرجيم، اقترب الصراخ حتى أصبح كلامًا لاهثًا رسم الفزع في وجه كل من سمعه.

وتسأل شيخ ثقل سمعه:

" ماذا يقول ؟ .. ماذا يقول ؟ " .

وأجابه آخر كان يستعجل نفسه للحاق بصاحب الصوت:

" يقول الغريب ليس في قبره !! ".

تــسمر الــشيخ في مكانه وأراد أن يستوضح أكثر ولكن الكــل كان مسرعًا إلى صاحب الصوت وكلهم جمعتهم الدهشة من عدم وجود الغريب في قبره.

اتجــه كل من في القرية .. أطفال .. رجال .. نساء فـــي المؤخــرة يثرثــرون إلى المقبرة ازدحموا حول القبر لمــشاهدة المعجزة والكل يهمس حتى أصبح الهمس هرجًا

صـــرخ الشيخ الذي كان قد وصل متأخرًا وجلس على أحد القبور خلف الزحام:

" يا سبحان الله .. يا سبحان الله .. انتبهوا يا جهله .. " .

صـــمت الجمـــيع واتجهوا بعيونهم إليه فوقف مستندا إلى عصاه، تحلقوا حوله تاركين القبر للأطفال يتفرجون عليه.

وأردف الـــشيخ قائلاً: " أن الغريب ولي صالح وقد رأيته اللـــيلة الماضـــية في منامي وهو يضحك ويشع من وجهه نور ويقول أشهروني يشهركم الله ".

وضــــاع صوت الشيخ وسط الضوضاء وبكاء بعض من ظلمـــوا الغـــريب في حياته، ومنذ ذلك أصبحت المقبرة تعرف بمقبـــرة غريب وتم بناء ضريح فوق مكان القبر، يزوره الناس ويتبـــركون بتـــربته عند الشيخ الذي يدخل إلى الضريح ويتسلم الهبة الممنوحة للغريب من الزوار.

وفي الوادي القريب من القري كانت الذئاب تتحلق حول هيكل بشري.

* * * *

تـجـاعـيـد

تأملـــت وجهـــه كثيرًا وفكرت يومًا أن أحصي ما يرتسم عليه من تجاعيد ولم أفعل ربما خجلاً أو هي صعوبة الإحصاء فـــي وجـــه كل ملامحه تتحرك وكلما أبتسم أشعر أن ابتسامته كذلك متجعدة، وأحيانًا أشك أن يكون هذا الوجه قد مر بمرحلة طفولة أخاله ولد هكذا متجعد، وكنت اسمع هذه التجاعيد هي كل ما يرتكبها الإنسان من ذنوب فيسجلها الله في وجهه، ورسخ هذا الاعتقاد في نفسي فعندما أراه أتمني أن أعرف ذلك الذنب الذي تـــبدو تجاعيده أكبر من الأخرى فلاشك أنه ذنب عظيم أستحق كـــل هذا من الله، أنا نفسي كلما ارتكبت خطأ أذهب إلى المرآه وأتفحص وجهي وحين لا أجد أية تجاعيد أظن أن الله سامحني، ســـألته مرة وهو يمسك بين يديه نظارته الطبية يمسح عدساتها برفق وكأنها عيناه: " كم عمرك؟ ".

أعتدل في جلسته مستندا للجدار خلفه بعد أن أعاد نظارته فأصبحت عيناه أكثر أتساعًا.

ـ قال: " أربعة وثمانون عامًا".

قالت بعفوية: " أنت كبير !! ".

– " الله أكبر " .

وسبحت عيناه المتسعتان في لاشيء ويده المتجعدة تنقب الأرض بعـــود ثقاب لعله يثبت لها أنه مازال قويًا ولا تستطيع احتـــضانه ولكن العود خيب ظنه عندما اصطدم بحصى كسرته التفت إليّ قائلاً:

– " ما أسرع الأيام ".

ربما أراد تذكيري بأني سأصبح مثله في يوم ما.

أردف : " بـــالأمس كنت في مثل سنك وها أنا قادم مما أنت ذاهب إليه وتعود لتجد نفسك مكاني وغيرك يتأهب للذهاب، أحترس فالطريق طويلة وشاقة وأستفد من أخطائي حتى لا تقع فيها وحافظ على هذه " ووضع يده على الأرض.

* * * *

أتــفـهـمـيــن ؟؟؟

أتفهمـــين .. أن مـــا بينـــي وبينك لغة غير قابلة للفهم .. وحـــروفاً لا يمكـــن أن تتهجى .. أتفهمين .. أن ما بيني وبينك صـــحراء لا ترتوي وعيون لا تؤمن بالبكاء .. أتفهمين ؟ ... أن مـــا بينـــي وبيـــنك عـــصور مظلمة وقوانين بشرية غير قابلة للاختـــراق.. أن الأمـــر أصعب مما تتصورين .. أتفهمين .. ما أريـــد .. وما تريدين .. أنا أريدك خالية من كل الوساوس .. من كل الشياطين .. وأنتِ .. تريدين حلمًا .. سحابة .. طائرًا أبيض يطيـــر بـــك .. ونـــسمة رقيقة .. وربيعًا أخضر .. وأنا الفارسِ أتفهمـــين .. يـــا حبيبتـــي .. في هذا الزمن لم يعد الحلم حلمًا .. والحب أثقل مما تحمله السحب .. وكل الطيور البيضاء هاجرت دون رجعـــة .. وأتـــسع ثقب الأوزون وتسربت نسمات الهواء الـــرقيقة إلـــى كـــواكب نجهلها في هذا الزمن يا حبيبتي .. سقط الفـــارس .. ورُحـــل الجواد إلى حديقة الحيوانات المنقرضة.. وأصـــبحت الفروســـية نوعًا من الإجرام يعاقب عليها القانون .. تعـــبتُ جـــدًا يا حبيبتي في هذا الزمن الموبوء بأمراض الجنس وانفـــصام الشخـــصية وعقد النقص .. أشتاق جدًا لرؤية رجل

مجنون تسبب فراقه لحبيبته في جنونه .. فكل مجانين هذا العصر لا علاقـــة للحـــب بجنونهم .. وأصبح الحب مجرد مادة دراسية قديمـــة نتداولها كخرافة أسطورية على سبيل التسلية في استراحة ما بين الحصتين .. يا حبيبتي .. قبل أن يفتكر الله (جدي) في آخر عمره بأيام قليلة سألته .. ماذا تتمنى يا جدي؟.. قال: (عمر آخــر فـــي زمـــن آخر) .. جدي هذا يا حبيبتي استكمل عمره الافتراضي ومازال يتمنى عمرًا آخر لكن ليس في هذا الزمن .. جدي هذا الذي مات وهو يناضل مـــن أجـــل أن يخلـــق اتحـــاد (فيدرالي) بين حبه لبقرته وحبه لجدتي، فالأولى تمنحه الحليب والأخـــرى تمنحه الدفء في لياليه الباردة وعندما دفنوه ضحكت كثيرًا فوق قبره وشعرت به يهتز، كأنه يضحك بداخله وأحسست بمـــيلاده مـــن جديد، لقد استجاب له الله بعمر آخر في زمن آخر وحتى الآن مازال يعتقد الجميع أنه مات ورغم تراكم السنين على هذا واختلاط قبره بقبور أخرى، إلا أنني كلما قادتني خطاي إليه أتخيله مازال يضحك منذ ذلك اليوم.

* * * *

حتى النخاع

المكان: أحد المطارات

الزمن: القهر

التاريخ: الذل

التهمة: عربي

سألتني الموظفه الشقراء هل أنا عربي ؟.. أتسألينني هل أنا عربي؟.. أنا عربي .. أقسم لك بأنني عربي، تفحصي ملامحي جيدًا، تفحصي جسدي .. ستجدين ندوب طعنات السيوف وكدمات عصى البوليس ورائحة عرقي تشبه رائحة النفط .. أصابني الشلل في بعض أجزائي وتعرضت لأزمات قلبية أدخلوني غرفة الانعاش فأخطاء الطبيب في حقني بالمخدر فحقنني (بالدولار) فأصبت بالتخمة لأنني لم أعتد تناول العقاقير المتخمة .. هل أدركتي كم أنا عربي؟.. وكم أنا مُتعب، أنا عربي أناصر (الأمين) وأمقت (المأمون) .. لا لشيء إلا لأن الأول يوافق اسمه اسم جدي الذي دهسته عربة الإمبراطور (أورليانوس) في شوارع (روما) أثناء استعراضه بأسيرته الملكة (زنوبيا)، ومات جدي وهو يحمل في يده اليمني زجاجة خمر مفخخة وفي اليد اليسرى حقيبة

دبلوماســية تحــوي كل أوراق القضية، وبكت جدتي كثيرًا كما لم تبكـــي (الخنساء) لأن جدي مات قبل أن يبعث لها بسوار كسرى ولـــم يذكره التاريخ، وإلى الآن لم أعرف هل وقع سهوًا من ذاكرة التاريخ، أو أن موته جاء قبل أن يبدأ المؤرخون التدوين، وقبل أن يخدعنا معلم الجغرافيا، ويقول أن (أفريقيا) عذراء، وصدقناه، بل وتخيلـــناها فتاة سمراء تسبل عيونها خجلاً، ولم نستطع أن نتخيل ارتفـــاع الـــدم الأحمر إلى وجنتيها وهي سمراء واكتفينا بأن تسبل عيونها خجلاً وبعد مدة اكتشفنا أننا نعيش في أحشائها منذ أن دخلها الفاتحون وحفرت سنابك خيولهم الأرض ولم تكتشف النفط .. هل صدقتي كم أنا عربي ؟، وكم أنا مُرهق، زرعوا في ذاكرتي موت (صلاح الدين) ولم أصدق .. ولكني اقتنعت أنه مات حقًا عندما داســوا قبره ولم يستيقظ وصرخت كل النساء ولكن (المعتصم) .. كـــان يحتفل بعيد ميلاده .. وحين سمع الصراخ كان متعبًا ومتخمًا و(عمـــورية) بعيدة .. بعيدة جدًا تفصله عنها خمس وخمسون سنة فاكتفـــى بالاســـتنكار .. أنا عربي منذ أن هجرتنا نساؤنا.. أصبحن عشيقات للأرض، وشق أطفالنا عصا الطاعة بحجر صغير، ولكننا لم نصمت ويشهد لنا العالم بأننا دائمًا نتكلم حتى علا الصدأ أسماعنا، ولم نعد نسمع حتى بعضنا البعض .. وآه .. كم أنا عربي حتى النخاع.

* * * *

الجـيــب الـمـثـقـوب

اصـــطففنا أمـــام الرجل المسلح وبلهجة شديدة أمرنا بأن نخـــرج كـــل مـــا في جيوبنا .. كنت اسمع ارتطام قطع نقدية وأدوات حديديـــة تسقط على الأرض تدحرجت قطعة نقدية إلى أن اســـتقرت بـــين قدمي وترنحت بشكل دائري وبدأت تتسارع حركاتها الأخيرة وكأنها تلفظ آخر أنفاسها حتى سكنت تمامًا.

لكزني الرجل المسلح بمؤخرة بندقيته في صدري قائلا:

" لماذا لا تخرج ما في جيوبك ؟ ".

حاولـــت أن أتذكر متى كانت آخر مرة أضع فيها يدي في جيبي، كان ذلك صباح أمس عندما طلب مني صاحب الحافلة التي اســـتقلها أن أدفع لــــه ووضعت يدي في جيبي ووجدت أنه مثقوب واعتذرت، لـــه وجعلته يشاهد ثقب جيبي، حيث يبدو أن النقود قد سقطت منه وأنا في غاية الإحراج، غير أنه ابتسم باستهزاء وقال:

" أنني أعرف هذه الأساليب وأصبحت قديمة ".

وأوقـــف الحافلـــة وطلب مني الترجل منها، احتدم بيننا النقاش.

هـــو يحـــاول أن يُفهمنـــي أنه يفهم أنني مجرد نصاب وأنا أحاول إقناعه أنني فعلاً كنت أمتلك مبلغًا نقديًا قد لا يكون كبيرًا،

ولكـــنه يسدد ثمن أجرته، وأنني سوف اترك الحافلة ولكن قبل ذلك يجـــب أن يعـــرف بأنـــي لـــست نصابًا، وتمسكت بفكرة إقناعه خـــصوصًا عـــندما أطلـــت رؤوس الـــركاب مـــن خلف المقاعد ليـــشاهدوني ومـــن هم خلفهم لم يتمكنوا من رؤيتي ما اضطرهم للوقـــوف فـــوق المقاعد، تركته واتجهت بالحديث إليهم وأنا أشق طريقي بين المقاعد وأخرج لهم جيبي ليشاهدوا مدى اتساع الثقب، وكيف أنني كنت أضع فيه نقودي ووقعت منه ولا أمتلك غيرها ..

تمـــتم بعـــضهم بكلمـــات فيها .. الله يعوَّض .. وشيطان .. وآخرون ضحكوا لم أعرف أيضحكون على الثقب أو عدم التصديق.

أحدهم غمزني بعينه وقال: " تحدث في أحسن الجيوب ها ها ها ها ".

صـــرخ صـــاحب الحافلـــة بصوت عالٍ سكت له الجميع وقال:

" ياسيدي هذه مشكلتك .. خلاص أنزل عطلت الركاب ". وتعالـــت بعض الصيحات من الركاب بصدق كلامه وضرورة نزولـــي، نـــزلت ومـــا أن وضعت قدمي الأيسر على الطريق والأمـــين ما يزال داخل الباب حتى تحركت الحافلة مسرعة ما أوقعنـــي بوجهـــي على الرصيف وأنا أتدحرج وأسمع صرير العجـــلات يحفـــر الإســـفلت ما أصابني بوابل من الحصى ولم

تفارقنـــي مـــنذ تلك الواقعة صورة وجوه ركاب المقاعد الخلفية بأنوفهم الملتصقة بالزجاج الخلفي للحافلة تشاهد وقوعي ..

ســـاعدني عامـــل النظافة على الوقوف وأخذني إلى حـــيث يضع أدواته، قدم لي زجاجة ماء غسلت وجهي الذي كان قد تسلخ وأصبح يميل للتقرح وانتفخت بعض الكدمات في أنفي وجبهتي.

انتبهت على لكزة أخرى لكن هذه المرة في مؤخرة رأسي والرجل المسلح يقول بلهجة آمره:

" أخرج ما في جيوبك ".

ومن ثم انتبه للكدمات على وجهي وقال ساخرًا:

" تبدو معتادًا على المشاكل ".

لـــم أعلـــق واكتفيت بإخراج جيوبي ليشاهد أنها فارغة، تملكته نوبة من الضحك وصلت إلى حد القهقهة وهو ينظر إلى جيبـــي المثقوب وانحنى ليلتقط قطعة النقود الحديدية التي لفظت أنفاسها تحت قدمي وقال وهو مازال يضحك:

" خذ هذه وأذهب من هنا ".

ذهـــبت دون أن أنظـــر إلى الخلف ويدي تعتصر قطعة النقود خوف الضياع.

نبضة قلب .. وقصاصات أخرى

(1)

(نبضة قلب)

استيقظت هذا الصباح، شعرت بوخز في قلبي، أصبحت نبضاته تدق بوهن، شيء ما يحدث .. شيء ما يتكسر داخله، وضعت يدي عليه وذهبت، أصبحت حركته بطيئة .. حتى حسبته توقف، تأخر الطبيب، مللت الانتظار، حفرت اسمك على طاولة الاستقبال، فتحسن قلبي، واصلت الحياة .. ذهبت إليك.

* * * *

(2)

(دمعة)

ماء له طعم يختلف .. تمتلئ به العيون .. يتسرب بعضه ينحدر عبر المآقي، تتكون الدمعة .. تلطخ الخدود .. ينخفض مستوى الهموم .. نشعر بالارتياح .. نواصل البكاء.

(3)

(وحدة)

ضجيج العالم من حولك كخلية نحل .. صخب .. ضحك.. بكـــاء .. روتين ممل .. وأعمال لا تنتهي .. علاقات متشبعة، في هـــذا الخضم تبحث عن مكان لتختلي فيه بنفسك .. لإعادة صياغة تأملـــك .. تحمل في جعبة أفكارك العديد من علامات الاستفهام .. تسأل .. تجيب .. إنها الوحدة القاتلة رغم كثرة من يحيطون بك.

* * * *

(4)

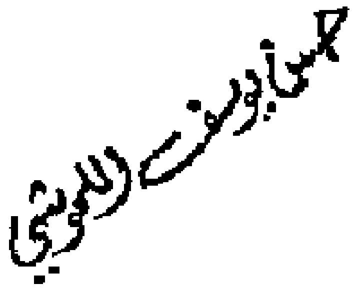
(تساؤل)

مـــاذا لـــو استيقظ كل الناس ذات صباح .. ووجدوا أن جميع مستنداتهم الرسمية قد مُحيت .. ولم تعد تحتوي على أي بـــيانات، ولـــم يعـــد بحـــوزتهم ما يثبت هوياتهم، ولا تواريخ مـــيلادهم، ولا رخص قيادتهم .. أو جوازات سفرهم .. ولا .. ولا .. مـــاذا يحـــدث ؟ ... هل يصبح الإنسان نكرة ؟ .. هل الإنسان مجرد مجموعة من الأوراق ؟.

الفهـــرس

الموضوع	الصفحة

* * * *



تنفيذ الطباعة والتجهيزات الطباعية

دار قباء الحديثة

للطباعة والنشر والتوزيع - القاهرة

جمهورية مصر العربية

16 عمارات العبور - شارع صلاح سالم - مدينة نصر

تليفاكس 02/22621365 - محمول 0123140315

E-mail: modern_qubaa@hotmail.com



يقدّم مجلس الثقافة العام للقارئ الكريم مجموعةً من إصداراته الجديدة المتنوعة ، التي تتضمن أجناسًا أدبيةً وفنيةً ، تهدف إلى دعم الكتاب ونشر المعرفة وتنمية الذائقة الجمالية وإثراء الحركة الثقافية .. آمِلاً إسهامًا جادًا يضيف إلى الحراك الثقافي رصيدًا مميزًا وفضاءً جديدًا للمعرفة وللحياة.

مجلس الثقافة العام